الشعراء الاندلسيون

ميزة الشعر

شعر الجهاد . شعر العصبية الحزبية . تقليد الاندلسيين للمشارقة . تجديدهم . رقة شعرهم . صوره . معانيه غير دقيقة .

هاجر الشعر الى الاندلس مع العرب المهاجرين ، فكان الشعراء يحضون به الفرسان على الجهاد، ويثيرون الحماسة في صدورهم عند مواقف الاهوال ، ويغذون به عصبية الاحزاب بين المضرية واليمانية، ويحرضون الناس على الفتنة والشغب . بيد انه ليس لدينا من هذا الشعر ما يسهل البحث فيه، والكلام عليه، الا اننا نعلم انه لا يخرج باسلوبه ولغته ومعانيه عن الشعر الاموي في المشرق، ولا غرو فاصحابه اسلاميون مشارقة .

وظل الاندلسيون يولون وجوههم شطر المشرق في اكثر شؤونهم ، لانه مطلع انوارهم، ومهد حضارتهم، ولانهم يرون في اهله المثل الاعلى الذي ينبغي ان يقتدى به . فراحوا يقتفون آثارهم، وينسجون على منوالهم ، واطلقوا على بعض مدنهم اسماء مدن كانوا يسكنونها في الشام فسموا غرناطة دمشق ، واشبيلية حمص ، وتُدمير فلسطين، وجيان قِنسرين ✶

ولم يلبث هذا التقليد ان صار منافسة، فكاثروهم في انشاء القصور والحدائق، والمدارس والمكاتب ، والجوامع والمدائن ، وفي تقريب الشعراء والعلماء، والقيان والمغنين، حتى انهم كانوا يسعون في استقدامهم من الشرق ليباهوا بهم دولة بني العباس . واطلقوا على نوابغ شعرائهم القاب شعراء الشرق وكناهم، فكان غالب

الاندلسي يكنى ابا تمام، وابن زيدون يلقب بالبحتري، وابن هاني بالمتنبي. ولما مات ابن هاني قال المعز الفاطمي: «كنا نريد ان نفاخر به شعراء المشرق، فلم يقدّر لنا ذلك.» وتلقب خلفاؤهم، وملوكهم بالقاب بني العباس فكان عندهم المنصور، والمهدي، والمأمون، والمعتصم، والمعتضد وما اشبه ذلك.

وسرى حب الجديد في نفوس الاندلسيين كما سرى في نفوس اهل الشرق، لان الجيل الذي نشأ في اوربة لم يكن عربياً خالصاً فيستمسك بالقديم استمساك العرب الصرحاء الذين اقتحموا الجزيرة في عهد الفتح؛ وانما كان مزيجاً من عناصر مختلفة اختلطت بالتزاوج والسكنى، فيها العربي والبربري، وفيها القوطي والرومي، وفيها اليهودي واللاتيني. فكان له عقلية غير عقلية الجيل البدوي، وتفكير غير تفكيره، وحضارة غير حضارته. فسلك شعراء الاندلس مسلك شعراء بني العباس لتشابه الحياة بالترف والنعمة، ولتشابه البلاد بالخصب والعمران. فوصفوا بيئتهم واحوالهم، وتهتكوا وبالغوا في التهتك، واباحوا لانفسهم من المحرمات ما اباح شعراء الشرق، ورغبوا مثلهم في الاغراض الجديدة، والمعاني الحضرية عن الاغراض والمعاني القديمة، وابدلوا من الاسلوب البدوي اسلوباً حضرياً صرفاً. ونفروا من الالفاظ الغريبة الوحشية الى الالفاظ المأنوسة الرقيقة، ولولا الدين واللغة وبقية من دم العرب في عروقهم، لانكروا قديمهم ايما انكار.

والعرب ابعد الناس عن نسيان قديمهم لتمكن غريزة التقليد في نفوسهم، ثم لما يتعلق بهذا القديم من وشائج دينية وقومية. فقد كان الشعر الجاهلي والاسلامي ديوان المفاخر القبلية، والحجة التي لا تقرع في تفسير معاني القرآن ومعرفة غريبه. والاندلسيون فيهم عرق من العروبة، ولهم لغة العرب ودينهم، فلم يجدوا بدّاً من الحفاظ على القديم واجلال مكانته ولاسيما الطبقة الارستقراطية من الملوك والامراء والاشراف والفقهاء. فعز على شعرائهم ان يتحرروا كل التحرر بعد ان اتّفر لهم الجديد في حضارتهم، فاصابهم ما اصاب شعراء بغداد في بني العباس. فكانوا يصطنعون الجديد في الغزل والمجون والخمر ووصف الطبيعة والعمران، وغير ذلك مما لا يتناول الملوك والامراء بمدح او رثاء، بل ربما تركوا القديم في مدائحهم ومراثيهم،

فلم يخلوا باساليب الاعراب ، ومعانيهم واوصافهم ، لتبسطهم في الحضارة ، وبعد ما بينهم وبين البادية . ولما كان لبيئتهم من الاثر البليغ في استدرار قرائحهم ؛ فمن شعوب غريبة اتخذوا عاداتها وازياءها ، الى عمارة زاهرة ملهمة ، الى طبيعة ساحرة شاعرة .

والشعر الاندلسي فيه رقة وجمال ، وفيه خيال لطيف وصور براقة ملونة ، ولكن ليس فيه من المعاني الدقيقة ما في الشعر العباسي ؛ لان اصحابه عنوا بتزيين الفاظه ، وتوشية اوصافه ، والتنوق في قوالبه ، اكثر من عنايتهم بتصيد معانيه ، والغوص عليها في قراراتها البعيدة ؛ فكأنهم ارادوا ان يتغنوا ، فنظموه صالحاً للغناء . وشيء آخر جعل الشعر الاندلسي دون الشعر العباسي في دقة المعنى وهو ان الاندلسيين لم تتسع صدورهم لاقتبال الفلسفة والمنطق كما اتسعت صدور المشارقة ، فلم يتثقف بهما شعراؤهم تثقف شعراء بني العباس . وغير خفي ما للفلسفة والمنطق من اثر في توليد المعاني ، وتوسيع الخيال ، وحسن توجيهه وترتيبه .

وليست لغة الاندلسيين محكمة البناء كلغة المشارقة ، وذلك لبعد صقعهم عن البادية ، ووجودهم في بيئة خالصة العجمة من الشمال الى الجنوب . ثم ان الجيل الذي نشأ هناك لم يكن عربياً صافياً وقد كان فيه جماعة استعربوا ونظموا الشعر وهم فرنجة خلّص .

ولم يترك اهل الاندلس باباً من ابواب الشعر المعروفة الا قرعوه ونوعوا اغراضه وفنونه ، فمنه ما ترسموا به اهل المشرق ، فواطأوهم في معانيهم ، وشاركوهم في اساليبهم ، وعارضوهم في مشهورات قصائدهم ، ولكنهم لم يبلغوا شأوهم ولا شقّوا غبارهم . ومنه ما طبعوه بطابعهم الخاص ، وبذوا به المشارقة ، كوصف الطبيعة والعمران ، ورثاء الممالك البائدة ، مما سنبسطه في كلامنا على فنون الشعر الاندلسي وانواعه .

المدح

اتباعهم خطة المشارقة . التصدير بالغزل ووصف الطبيعة . طريقة الاسلوب القديم . غريبهم . المغالاة . التملق . شعراء المدح .

اتبع شعراء الاندلس في مدائحهم الخطة التي جرى عليها المشارقة ، فحافظوا مثلهم على الاسلوب القديم ، وعنوا بالاستهلال وحسن التخلص ، واحكام البناء وشد اسره ، والتزموا الغزل في محاريب مدائحهم ، وربما جعلوا صدورها وصفاً للخمرة ، او للطبيعة او للبلد الذي نشأ فيه الشاعر .

واذا شذ بعضهم عن هذا السبيل ، فاستهل بالمدح من غير توطئة ، عابوا عليه ذلك ، وعنفوه . فقد مدح هلال البياني شاعر غرناطة ابن حَمْدين قاضي قرطبة بقصيدة اولها :

عَرِّجْ عَلَى ذَاكَ ٱلْجَنَابِ ٱلْعَالِي ، وَٱحْكُمْ عَلَى ٱلْأَمْوَالِ بِٱلْآمَالِ (١)

فِيهِ ٱبْنُ حَمْدِينَ ٱلَّذِي لِنَوَالِهِ ، مِنْ كُلِّ أَرْضٍ شُدَّ كُلُّ رِحَالِ (٢)

فقال له القاضي : « ما هذا الوثوب على المدح من اول وهلة ! الا تدري انهم عابوا ذلك كما عابوا الطول ايضاً ، وان الاولى التوسط . »

ووصفوا الفلاة والناقة والجواد جرياً مع الاسلوب القديم ، وحنّوا على بادية الاعراب وداراتها ، ولكنهم لم يستفيضوا في وصفهم هذا بل اقتصدوا كل الاقتصاد .

ولم يفرطوا في استعمال الغريب افراط المشارقة ، ولا اغرقوا في المغالاة اغراقهم الا ما كان من ابن هاني فانه تعمد الغريب تعمداً ، وخرج في غلوه الى الاحالة ، محتذياً على مثال ابي الطيب المتنبي . وكان هذا الشاعر مغموز العقيدة ، فرمي بالزندقة واخرج

(١) الجناب : فناء الدار ، وما قرب من محلة القوم . قوله بالآمال : اي بآمالك .
(٢) نواله : عطاؤه .

من الاندلس، فجاء المغرب، واتصل بالمعز لدين الله الفاطمي . والفاطميون من الشيعة الغالية التي تعتقد الحلول في الائمة، ومنهم المهدي جد المعز . فكان ابن هاني يجاري عقيدة الفاطميين في الحلولية، ويضع المعز في مقام الانبياء والرسل، ويجعل له قوة وتأييداً من روح الله فيقول :

مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتِ ٱلْأَقْدَارُ ، فَٱحْكُمْ فَأَنْتَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ
وَكَأَنَّمَا أَنْتَ ٱلنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ، وَكَأَنَّمَا أَنْصَارُكَ ٱلْأَنْصَارُ

او يقول، وكان المعز في رقادة من ارض المغرب :

حَلَّ رَقَادَةَ ٱلْمَسِيحُ ، حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا ٱللهُ ذُو ٱلْمَعَالِي ، وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وربما خلطوا الفاظ النسيب بالفاظ المدح، فعل القزّاز عندما امتدح المعتصم بن صُمادِح[1] بقوله :

نَفَى ٱلْحُبُّ عَنْ مُقْلَتَيَّ ٱلْكَرَى ، كَمَا قَدْ نَفَى عَنْ يَدَيَّ ٱلْعَدَمْ[2]
فَقَدْ قَرَّ حُبُّكَ فِي خَاطِرِي ، كَمَا قَرَّ فِي رَاحَتَيْكَ ٱلْكَرَمْ

ويختمون قصائدهم على الغالب باهدائها الى الممدوح، مشبهينها ببكر حسناء، او روضة غناء . قال ابن عمّار في كلمة مدح بها المعتضد بن عباد :

وَإِلَيْكَهَا كَٱلرَّوْضِ زَارَتْهُ ٱلصَّبَا ، وَحَنَى عَلَيْهِ ٱلطَّلُّ حَتَّى نَوَّرَا[3]

ولم يخل مدحهم من تملق وخنوع، واستعطاف .

واشتهر في المدح من شعراء بني امية ابن عبد ربه[4] واحمد بن شُهَيْد[5] وابن

---

(١) المعتصم بن صُمادح : احد ملوك الطوائف . كانت مملكته صغيرة تشتمل على المَريّة وبجاية والصُمادحيّة، ولكنه كان كريماً مقرباً للشعراء، ففصدوه ومدحوه . توفي سنة ٤٨٤ هـ . (١٠٩١ م) . (٢) الحب : اي حب المعتصم . العَدَم : الفقر . (٣) الطلّ : المطر الضعيف، والندى . نوّر : اخرج نَوْره، والنَوْر : الزهر . (٤) احمد ابن عبد ربه القرطبي ولد سنة ٢٤٦ هـ . وتوفي سنة ٣٢٨ هـ . (٨٦٠-٩٣٩ م) وجده من موالي هشام بن عبد الرحمن الداخل . اشهر اثاره العقد الفريد، وله ديوان شعر جيد . (٥) احمد بن عبد الملك بن شهيد الاشجعي القرطبي، وزير الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر واول من تسمى بذي الوزارتين في الاندلس .

هاني[١] . ومن شعراء الدولة العامرية في قرطبة ابن دَرّاج القَسْطَلي[٢] وابو عامر بن شُهَيد[٣] . ومن شعراء ملوك الطوائف ابن زيدون[٤]، وابن عمّار[٥]، وابن اللَبانة[٦]

---

(١) هو ابو القاسم محمد بن هاني الازدي الاندلسي الملقب بمتنبي الغرب، ولد باشبيلية سنة ٣٢٦ هـ. وتوفي في بُرقة من المغرب سنة ٣٦٢ هـ. (٩٣٧-٩٧٢ م) . اتصل بصاحب اشبيلية في ايام الحكم المستنصر ثم رمي بالزندقة لاخذه بمذاهب الفلاسفة ، فاخرج من الاندلس ، فاجتاز البحر الى عدوة المغرب، واتصل بالمعز لدين الله الفاطمي . من آثاره ديوان شعر مشهور . (٢) هو ابو عمر احمد بن دراج الاندلسي القسطلي . كان كاتب المنصور بن ابي عامر وشاعره، وهو معدود من الفحول . ولد سنة ٣٤٧ هـ . وتوفي سنة ٤٢١ هـ . (٩٥٨-١٠٣٠ م) . (٣) هو ابو عامر بن ابي مروان بن شُهيد حفيد احمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر . ولد سنة ٣٨٢ هـ . وتوفي بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ . (٩٩٢-١٠٣٤ م) . اتصل بالمؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن ابي عامر وكتب له . وكان بارعاً في الشعر والنثر متفنناً في التصانيف واشهرها التوابع والزوابع . (٤) هو ابو الوليد احمد بن عبدالله بن زيدون المخزومي الاندلسي القرطبي . كان ابوه من وجوه الفقهاء بقرطبة . وبرع ابن زيدون في الشعر والترسل ، وتقلد الوزارة في عهد الدولة الجهورية بعد اختلال ملك بني امية . ثم دس عليه حساده فسجنه ابن جهور فهرب من سجنه، وترك قرطبة الى اشبيلية، واتصل بالمعتضد بن عباد، ثم صار وزيراً لابنه المعتمد . ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ . وتوفي باشبيلية سنة ٤٦٣ هـ . (١٠٠٣ - ١٠٧٠ م) . (٥) هو ذو الوزارتين ابو بكر محمد بن عمار ، استوزره المعتمد بن عباد ، وكان المعتمد واليا على شلب من قبل ابيه . وساءت سمعة ابن عمار والمعتمد فنفى المعتضد ابن عمار في اقاصي بلاد الاندلس . ولما توفي المعتضد وصار الملك الى المعتمد ، دعا اليه ابن عمار ، وولاه شلب ثم استوزره ، وقاد جيوشه . ثم خطر له ان يتملك بلَنْسية بعد ان فتحها ، ويخلع طاعة المعتمد . فقبض عليه المعتمد وسجنه، فاخذ يستعطفه بقصائد شهيرة، فلان المعتمد وعفا عنه ثم رجع عن عفوه وقتله بيده سنة ٤٧٧ هـ . (١٠٨٤ م) وكانت ولادته سنة ٤٢٢ هـ . (١٠٣٠م) . (٦) هو ابو بكر بن اللبانة من دانيَة في الاندلس، اتصل بالمعتمد بن عباد ، وكان المعتمد يجيزه ويستعذب شعره . ولما نكب المعتمد ، وحبس في المغرب وفى له ابن اللبانة ، ورحل اليه يؤنسه بشعره ويؤاسيه، ويشكر له ما ناله من صلاته في دولته . واتصل بغير المعتمد من ملوك الطوائف .

وابن حمديس[1]، وابن الحدّاد[2]، وابن عَبْدون[3]. ومن شعراء بني الاحمر ابن الخطيب[4] وابن زَمْرك[5].

ونورد هنا مثالين على المدح، تبدو فيهما ميزة هذا الفن عندهم، وهي لا تكاد تختلف عن ميزة المدح عند المشارقة. قال ابن درّاج يمدح الحاجب المنصور بن ابي عامر، معارضاً رائية ابي نواس في الخصيب[6]:

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ ٱلثَّرَاءَ هُوَ ٱلثَّوَى، وَأَنَّ بُيُوتَ ٱلْعَاجِزِينَ قُبُورُ[7]
تُخَوِّفُنِي طُولَ ٱلسِّفَارِ وَإِنَّهُ لَتَقْبِيلِ كَفِّ ٱلْعَامِرِيِّ سَفِيرُ

ومنها يصف وداعه لزوجه، ويصور طفله في المهد ابرع تصوير، ثم يعطف الى وصف سفره في القفر والحر:

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا بِصَبْرِيَ مِنْهَا أَنَّةٌ وَزَفِيرُ[8]

---

(١) هو ابو محمد عبد الجبار بن حمديس الازدي. ولد في جزيرة صَقَلِّيَة في بحر المغرب بالقرب من افريقية سنة ٤٤٧ هـ. (١٠٥٥م) وجاء الاندلس سنة ٤٧١ هـ. (١٠٧٨م) واتصل بالمعتمد بن عباد في اشبيلية، ونال منه سني الجوائز. وتوفي سنة ٥٢٧ بجزيرة مَيُورقة. (١١٣٢ م). (٢) هو ابو عبدالله محمد بن الحداد من شعراء المعتصم بن صمادح وابنه معن ولم يكن مبتذلاً في مدحه ولا متغالياً. توفي سنة ٤٨٠ هـ. (١٠٨٧ م). (٣) هو ابو محمد عبد المجيد بن عبدون الفهري وزير بني الافطس في بَطَلْيوس وشاعرهم توفي سنة ٥٢٠ هـ. (١١٢٦ م). (٤) هو ذو الوزارتين لسان الدين محمد بن عبدالله المعروف بابن الخطيب. شاعر محمد بن ابي الحجاج احد ملوك بني الاحمر، ووزيره. وشى به حساده ومنهم تلميذه ابن زمرك. فنكبه السلطان فهرب الى المغرب، ثم سجن بفاس وخنق في سجنه سنة ٧٧٦ هـ. (١٣٧٤ م) وكانت ولادته بغَرْناطة سنة ٧١٣ هـ. (١٣١٣ م). (٥) هو ابو عبدالله محمد بن يوسف الصريحي المعروف بابن زمرك ولد في غَرْناطة سنة ٧٣٣ هـ. (١٣٣٢ م). واتصل بالوزير لسان الدين بن الخطيب. وافاد منه ادباً وعلماً وشهرة. وعهد اليه محمد بن ابي الحجاج بكتابة سره، وهو الذي وشى بابن الخطيب ولي نعمته. ثم نقم عليه السلطان فقتله شر قتلة سنة ٧٩٦ هـ. (١٣٩٣ م). (٦) هي القصيدة التي يقول ابو نواس فيها:

ذَرِينِي أَكُثِّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةٍ، إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الخَصِيبُ أَمِيرُ
إِذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ الخَصِيبِ رِكَابُنَا، فَأَيُّ فَتًى بَعْدَ الخَصِيبِ تَزُورُ؟

(٧) الثَّوى: هلاك المال والعُدْم. (٨) هفا بصبري: ذهب به.

تُنَاشِدُنِي عَهْدَ ٱلْمَوَدَّةِ وَٱلْهَوَى، وَفِي ٱلْعَهْدِ مَبْغُومُ ٱلنِّدَاءِ صَغِيرُ (١)
عَيِيٌّ بِمَرْجُوعِ ٱلْخِطَابِ، وَلَحْظُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ ٱلنُّفُوسِ خَبِيرُ (٢)
تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ ٱلْقُلُوبِ، وَمُهِّدَتْ لَهُ أَذْرُعٌ مَحْفُوفَةٌ، وَنُحُورُ (٣)
فَكُلُّ مُفَدَّاةِ ٱلتَّرَائِبِ مُرْضِعٌ، وَكُلُّ مُحَيَّاةِ ٱلْمَحَاسِنِ ظِئْرُ (٤)
عَصَيْتُ شَفِيعَ ٱلنَّفْسِ فِيهِ، وَقَادَنِي رَوَاحٌ لِتَدْآبِ ٱلسُّرَى، وَبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ ٱلْبَيْنِ بِي، وَهَفَتْ بِهَا جَوَانِحُ مِنْ ذُعْرِ ٱلْفِرَاقِ تَطِيرُ (٥)
لَئِنْ وَدَّعَتْ مِنِّي غَيُورًا فَإِنَّنِي، عَلَى عَزْمَتِي مِنْ شَجْوِهَا، لَغَيُورُ (٦)
وَلَوْ شَاهَدَتْنِي، وَٱلْهَوَاجِرُ تَلْتَظِي عَلَيَّ، وَرَقْرَاقُ ٱلسَّرَابِ يَمُورُ (٧)
أُسَلِّطُ حَرَّ ٱلْهَاجِرَاتِ إِذَا سَطَا، عَلَى حُرِّ وَجْهِي، وَٱلْأَصِيلُ هَجِيرُ (٨)
وَأَسْتَنْشِقُ ٱلنَّكْبَاءَ، وَهْيَ لَوَافِحٌ، وَأَسْتَوْطِئُ ٱلرَّمْضَاءَ، وَهْيَ تَفُورُ (٩)
وَلِلْمَوْتِ فِي عَيْنِ ٱلْجَبَانِ تَلَوُّنٌ، وَلِلذُّعْرِ فِي سَمْعِ ٱلْجَرِيءِ صَفِيرُ (١٠)

---

(١) مبغوم : لا يفصح في حديثه عن معنى . (٢) بمرجوع الخطاب : اي بجوابه . (٣) ممنوع القلوب : اي القلب الحصين العزيز الجانب . اذرع محفوفة : قد تكون من باب المجاز العقلي أُسند فيه الى الفاعل ما بني للمفعول ، والمراد اذرع حافّة، كما تقول حجاب مستور اي ساتر . او قد تكون بمعنى مقشورة ، لا شعر فيها ، من حفّت المرأة وجهها من الشعر قشرته . والمراد اذرع ناعمة نقية اللون . او انها محقوقة بالقاف المثناة : اي اذرع مثنية محنية لحمل الرضيع . ولكن حقف لم يرد متعدياً في كتب اللغة . (٤) ظئر : مخفف ظائر : العاطفة على ولد غيرها المرضعة له . (٥) هفت : خفقت . الجوانح : ضلوع الصدر تحت الترائب واحدتها جانحة . (٦) يقول : ان حزنها عليه وهو راحل يحقر مضاء عزمه . فهو يغار على عزمته فما يريد ان تحقّر بحزنها . كما انه يغار عليها هي، فلا يريد ان تكون لغيره . (٧) الرقراق : كل شيء له بصيص وتلالؤ . يمور : يتحرك مترددًا . والسراب يظهر اذا اشتد الحر . (٨) يقول : انه يستقبل حرّ الهواجر بوجهه الحُر، اي وجهه الكريم الخالص ، وقد سطا الحر وبلغ من شدته ان صار الاصيل هجيرًا . (٩) النكباء : ريح بين ريحين . لوافح : محرقة في هبوبها . وقوله لوافح بالجمع لان النكباء تشتمل على ثلاث رياح . استوطئ الرمضاء : اجدها وطيئة اي سهلة لينة . الرمضاء : الارض الحارة الحامية من شدة الحر . تفور : تغلي . (١٠) يقول : ان الجبان في مثل هذه الحال من الشدة يتصور له الموت الوانًا شتى ، حتى ان الشجاع على جراءته لا يسلم من الخوف . يريد اظهار شجاعته وصبره في الاهوال .

ـ لَبَانَ لَهَا أَنِّي مِنَ ٱلْبَيْنِ جَازِعٌ، وَأَنِّي عَلَى مَضِّ ٱلْخُطُوبِ صَبُورُ (١)

ومنها في المدح :

وَلَمَّا تَرَامَوْا بِٱلسَّلَامِ وَرُفِّعَتْ، عَنِ ٱلشَّمْسِ فِي أُفْقِ ٱلشُّرُوقِ سُتُورُ (٢)

وَقَدْ قَامَ مِنْ زُرْقِ ٱلْأَسِنَّةِ دُونَهُ صُفُوفٌ، وَمِنْ بِيضِ ٱلسُّيُوفِ سُطُورُ (٣)

رَأَوْا طَاعَةَ ٱلرَّحْمٰنِ كَيْفَ ٱعْتِزَازُهَا، وَآيَاتِ صُنْعِ ٱللهِ كَيْفَ تُنِيرُ (٤)

وَكَيْفَ ٱسْتَوَى بِٱلْبَدْرِ وَٱلْبَحْرِ مَجْلِسٌ، وَقَامَ بِعِبْءِ ٱلرَّاسِيَاتِ سَرِيرُ (٥)

يَقُولُونَ، وَٱلْأَوْجَالُ تُخْرِسُ أَلْسُنًا، وَحَارَتْ عُيُونٌ مِنْهُمُ وَصُدُورُ : (٦)

لَقَدْ حَاطَ أَعْلَامَ ٱلْهُدَى بِكَ حَائِطٌ، وَقَدَّرَ فِيكَ ٱلْمَكْرُمَاتِ قَدِيرُ (٧)

وقال ابن عمّار يمدح المعتضد بن عبّاد :

أَدِرِ ٱلزُّجَاجَةَ، فَٱلنَّسِيمُ قَدِ ٱنْبَرَى، وَٱلنَّجْمُ قَدْ صَرَفَ ٱلْعِنَانَ عَنِ ٱلسُّرَى (٨)

وَٱلصُّبْحُ قَدْ أَهْدَى لَنَا كَافُورَهُ، لَمَّا ٱسْتَرَدَّ ٱللَّيْلُ مِنَّا ٱلْعَنْبَرَا (٩)

وَٱلرَّوْضُ كَٱلْحَسْنَا كَسَاهُ زَهْرُهُ وَشْيًا، وَقَلَّدَهُ نَدَاهُ جَوْهَرَا (١٠)

---

(١) يقول : لعرفت اني صبور على الم الخطوب ، وان كنت فاقد الصبر عند فراقها . (٢) يريد ان ممدوحه ظهر للناس الذين اقبلوا للتسليم عليه كالشمس، وشبه مجلسه بافق الشروق . (٣) يقول : ان الحراس حوله بالرماح والسيوف ؛ يريد اظهار هيبة مجلسه . (٤) يقول : رأى الناس كيف اعتزاز من يطيع الله ، وكيف تضيء علامات صنائع الله في عبيده الطائعين ويريد بهذه العلامات نعم الله على ممدوحه . (٥) يقول : ورأوا كيف استقر المجلس بالبدر والبحر معا، وهما مستعاران للممدوح بجامع الشهرة والجود . وكيف حمل العرش جبالاً راسيات . وهي مستعارة بجامع الرزانة والثبات . (٦) الاوجال : جمع الوجل وهو الخوف . (٧) اعلام : جمع علم وهو شيء في الطريق يهتدى به . وقوله : حائط يريد به الله تعالى . وقدر فيك المكرمات : اي وحكم لك بها . (٨) انبرى : اعترض ، والمراد هب . السرى : السير ليلا، والمراد انه طلع الصباح ، وغاب النجم بعد ان كان مطلقاً عنانه للسير في الظلام (٩) الكافور : شيء يشبه الصمغ ابيض صلب يستخرج من اشجار في الهند والصين . وقد تعود الشعراء ان يستعيروا لونه لنور الصباح، كما اعتادوا ان يستعيروا العنبر لظلام الليل . (١٠) شبه قطرات الندى عند الصباح باللآلئ .

رَوْضٌ كَأَنَّ النَّهرَ فيهِ مِعْصَمٌ ، صافٍ أَطَلَّ عَلَى رِدَاءٍ أَخْضَرَا (١)
وَتَهُزُّهُ رِيحُ الصَّبَا فَتَخَالُهُ ، سَيْفَ ابْنِ عَبَّادٍ يُبَدِّدُ عَسْكَرَا (٢)
مَلِكٌ إِذَا ازْدَحَمَ المُلُوكُ بِمَوْرِدٍ ، وَنَحَاهُ ، لَا يَرِدُونَ حَتَّى يَصْدُرَا (٣)
أَنْدَى عَلَى الأَكْبَادِ مِنْ قَطْرِ النَّدَى ، وَأَلَذُّ فِي الأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ الكَرَى (٤)
يَخْتَارُ ، إِذْ يَهَبُ الخَرِيدَةَ ، كَاعِباً ، وَالطَّرْفَ ، أَجْرَدَ ، وَالحُسَامَ ، مُجَوْهَرَا (٥)
قَدَّاحُ زَنْدِ المَجْدِ لَا يَنْفَكُّ عَنْ نَارِ الوَغَى ، إِلَّا إِلَى نَارِ القِرَى (٦)
لَا خَلْقَ أَفْرَى مِنْ شِفَارِ حُسَامِهِ ، إِنْ كُنْتَ شَبَّهْتَ المَوَاكِبَ أَسْطُرَا (٧)
أَيْقَنْتُ أَنِّي مِنْ ذَرَاهُ بِجَنَّةٍ ، لَمَّا سَقَانِي مِنْ نَدَاهُ الكَوْثَرَا (٨)
وَعَلِمْتُ حَقًّا أَنَّ رَبْعِي مُخْصِبٌ ، لَمَّا سَأَلْتُ بِهِ الغَمَامَ المُمْطِرَا (٩)
مَنْ لَا تُوَازِنُهُ الجِبَالُ إِذَا احْتَبَى ، مَنْ لَا تُسَابِقُهُ الرِّيَاحُ إِذَا جَرَى (١٠)

---

(١) شبه النهر الممتد في الروض بمعصم اليد . وشبه الروض حوله برداء اخضر . (٢) يقول : تهز الريح هذا النهر فتتموج مياهه طردا وعكساً فكأن النهر سيف الممدوح ، وكأن هذه الامواج في اضطرابها وتلاشيها عسكر يبدده الممدوح بسيفه . (٣) نحاه : قصده . يصدر : يرجع عن الماء ضد يرد . يبين شرف ممدوحه فيقول : اذا ازدحم الملوك بمورد ، وقصد ابن عباد هذا المورد ، توقف الملوك هيبة له فلا يشربون الا بعد رجوعه عن الماء ؛ وهذا معنى بدوي قديم . (٤) اندى : اكثر خيرا ولطافة وبرودة . السنة : ابتداء النعاس في الرأس . يقول : هذا الملك اطيب للاكباد الحارة من قطر الندى ، والذ في العيون من النعاس . (٥) الخريدة : البكر . كاعباً : ناهداً ، وهي مفعول يختار . الطرف : الكريم العتيق من الخيل . (٦) القرى : الضيافة . (٧) افرى : اقطع . وقوله : ان كنت شبهت المواكب اسطرا ، اي ان كانت الجيوش تشبه السطور في اصطفافها . فانه اذا ضربها بسيفه يقطعها سطرا سطرا . وفي ذلك غلو قبيح . (٨) ذراه : كنفه . الكوثر : نهر في الجنة عند المسلمين . روي : « انه احلى من العسل ، وابيض من اللبن ، وابرد من الثلج ، والين من الزبد ؛ حافتاه من الزبرجد ، واوانيه من فضة ، لا يظمأ من شرب منه » . وكنى بالكوثر هنا عن الشراب اللذيذ الذي يسقيه اياه ممدوحه ، او عن العطايا السنية ، حتى ظن نفسه في الجنة . (٩) جرد من ممدوحه غماماً ممطراً يخصب ربعه . (١٠) احتبى : جلس عاقداً حبوته . والاحتباء ان يجمع الرجل بين ظهره وساقيه اذا جلس ليصير كالمستند . ويكون الاحتباء باليدين او بعمامة او بثوب او بسيف ونحوه . يقول : ان ممدوحه اذا جلس للشورى والحديث ، كان عقله ارزن من الجبال . واذا جرى للحروب والغارات كان اسرع من الرياح .

مَاضٍ، وَصَدْرُ الرُّمْحِ يَكْهُمُ، وَالظُّبَى ... تَنْبُو، وَأَيْدِي الْخَيْلِ تَعْثُرُ فِي الْبَرَى (١)

مَلِكٌ يَرُوقُكَ خَلْقُهُ أَوْ خُلْقُهُ، ... كَالرَّوْضِ يَحْسُنُ مَنْظَرًا أَوْ مَخْبَرَا

هَصَرَتْ يَدِي غُصْنَ النَّدَى مِنْ كَفِّهِ، ... وَجَنَتْ بِهِ رَوْضَ السُّرُورِ مُنَوَّرَا (٢)

شَقِيَتْ بِسَيْفِكَ أُمَّةٌ لَمْ تَعْتَقِدْ ... إِلَّا الْيَهُودَ، وَإِنْ تَسَمَّتْ بَرْبَرَا (٣)

أَثْمَرْتَ رُمْحَكَ مِنْ رُؤُوسِ كُمَاتِهِمْ، ... لَمَّا رَأَيْتَ الْغُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمِرَا

وَصَبَغْتَ دِرْعَكَ مِنْ دِمَاءِ مُلُوكِهِمْ، ... لَمَّا عَلِمْتَ الْحُسْنَ يَلْبَسُ أَحْمَرَا

نَمَّقْتَهَا وَشْيًا بِذِكْرِكَ مُذْهَبًا، ... وَفَتَقْتَهَا مِسْكًا بِحَمْدِكَ أَذْفَرَا (٤)

وَإِلَيْكَهَا كَالرَّوْضِ زَارَتْهُ الصَّبَا، ... وَحَنَا عَلَيْهِ الطَّلُّ حَتَّى نَوَّرَا (٥)

---

(١) ماضٍ: اي ماض في الحروب. يكهم: يكلّ. البرى: التراب. (٢) منوّرا: مزهرا. (٣) يطعن على البربر، لانهم خرجوا على الممدوح، ويرميهم باليهودية. (٤) فتقتها: اي القصيدة. فتقتها: خلطتها. أذفر: شديد الرائحة. (٥) الطل: الندى، او المطر الضعيف. نوّر: ازهر.

الرثاء

طريقة المشارقة . حكمهم في الاستهلال . تفوقهم برثاء الممالك الزائلة . شعراء الرثاء .

لا يختلف الاندلسيون عن المشارقة في رثاء الميت ، والتفجع عليه ، والمغالاة في وصفه ، ووصف الرزء به . فالاسلوب والتفكير واحد ، والمعاني والتعابير متواطئة . وربما عرض شعراء الاندلس الى الاحداث التي نزلت بالامم الخالية فابادتها ، او قوضت عروش ملوكها ، وصرعت قرومها وابطالها . وهم انما يقصدون التأسية ، بتعداد فواجع الدهر ، ومصارع الرجال ، وهذا قديم في الادب العربي .

ويستهلون مراثيهم بالحكم كالمشارقة ؛ وحكمهم في الغالب ساذجة مبتذلة ، تعود في اكثرها على شكوى الدهر ، وعدم الركون الى الايام . بيد انهم فاقوا المشارقة برثاء الممالك البائدة لما في نفوسهم من محبة صادقة لوطنهم ، وشغف عظيم بجمال طبيعته وعمرانه . فكان يشجيهم ان يروا ديارهم تسقط بلدًا اثر بلد في ايدي الغرباء من غزاة ومكتسحين ؛ فيبكون عليها ويتفجعون كما بكى ابن اللبانة على دولة العباديين ، وابن عبدون على دولة بني الافطس ، عندما ازالهما يوسف بن تاشفين ؛ وكما بكى ابو البقاء الرندي على مدن الاندلس بعد ان استردها النصارى ، وازعجوا عنها المسلمين .

وفي هذه القصائد الثلاث لوعة صادقة ، وتفجع اليم ، ولاسيما نونية الرندي . فان العاطفة الدينية ، زادتها روعة والتياعاً . وفي هذه القصائد الثلاث تكاد تجتمع خصائص الرثاء في الشعر الاندلسي . فمن حكم ساذجة وضرب امثال الى ذكر الشعوب السالفة التي اهانها الدهر ، الى امعان في تعظيم الخطب حتى الاغراق . واليك منتخبات منها تطلعك على ميزة الرثاء عندهم ، ولاسيما رثاء الممالك .

قال ابن اللبانة يرثي دولة بني عبّاد ، ويذكر خروج المعتمد من اشبيلية ، وحمله الى المغرب اسيراً ، والناس قد حشروا بضفتي الوادي ، يبكون على الملك المنكوب :

تَبْكِي ٱلسَّمَاءُ بِمُزْنٍ رَائِحٍ غَادٍ ... عَلَى ٱلْبَهَالِيلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَّادِ (١)

عَلَى ٱلْجِبَالِ ٱلَّتِي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا ... وَكَانَتِ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادِ (٢)

يَا ضَيْفُ، أَقْفَرَ بَيْتُ ٱلْمَكْرُمَاتِ فَخُذْ ... فِي ضَمِّ رَحْلِكَ، وَٱجْمَعْ فَضْلَةَ ٱلزَّادِ

وَيَا مُؤَمِّلَ وَادِيهِمْ لِيَسْكُنَهُ، ... خَفَّ ٱلْقَطِينُ، وَجَفَّ ٱلزَّرْعُ بِٱلْوَادِي

وَأَنْتَ يَا فَارِسَ ٱلْخَيْلِ ٱلَّتِي جَعَلَتْ ... تَخْتَالُ فِي عُدَدٍ مِنْهَا وَأَعْدَادِ (٣)

أَلْقِ ٱلسِّلَاحَ، وَخَلِّ ٱلْمُشْرَفِيَّ فَقَدْ ... أَصْبَحْتَ فِي لَهَوَاتِ ٱلضَّيْغَمِ ٱلْعَادِي (٤)

إِنْ يُخْلَعُوا فَبَنُو ٱلْعَبَّاسِ قَدْ خُلِعُوا، ... وَقَدْ خَلَتْ قَبْلَ حِمْصٍ أَرْضُ بَغْدَادِ (٥)

حَمَوْا حَرِيمَهُمُ حَتَّى إِذَا غُلِبُوا، ... سِيقُوا عَلَى نَسَقٍ فِي حَبْلِ مُقْتَادِ (٦)

نَسِيتُ إِلَّا غَدَاةَ ٱلنَّهْرِ كَوْنَهُمُ ... فِي ٱلْمُنْشَآتِ كَأَمْوَاتٍ بِأَلْحَادِ (٧)

وَٱلنَّاسُ قَدْ مَلَأُوا ٱلْعِبْرَيْنِ، وَٱعْتَبَرُوا ... مِنْ لُؤْلُؤٍ طَافِيَاتٍ فَوْقَ أَزْبَادِ (٨)

حُطَّ ٱلْقِنَاعُ، فَلَمْ تُسْتَرْ مُخَدَّرَةٌ، ... وَمُزِّقَتْ أَوْجُهٌ تَمْزِيقَ أَبْرَادِ (٩)

حَانَ ٱلْوَدَاعُ، فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ، ... وَصَارِخٍ مِنْ مُفَدَّاةٍ، وَمِنْ فَادِ

سَارَتْ سَفَائِنُهُمْ، وَٱلنَّوْحُ يَصْحَبُهَا، ... كَأَنَّهَا إِبِلٌ يَحْدُو بِهَا ٱلْحَادِي

كَمْ سَالَ فِي ٱلْمَاءِ مِنْ دَمْعٍ، وَكَمْ حَمَلَتْ ... تِلْكَ ٱلْقَطَائِعُ مِنْ قَطَعَاتِ أَكْبَادِ (١٠)

---

(١) المزن : السحاب ذو المطر . البهاليل : السادات الجامعين لكل خير، مفردها بُهلول . (٢) اوتاد الارض : جبالها، ومن البلاد رؤساؤها . (٣) يقول : تختال فيما هي عليه من سلاح وعدد كثير . (٤) اللهوات ، جمع لهاة : اللحمة المشرفة من اعلى الفم، واريد بها هنا الفم على الاطلاق ؛ وجمعت لان الضيغم هنا بمعنى العدو المغير، يعبر به عن الواحد والجمع . (٥) حمص : هي إشبيلية . (٦) المعنى : انهم اسروا وسيقوا منظومًا بعضهم الى بعض بالحبال . (٧) المنشآت : السفن . يقول : ما خطر ببالي انهم يكونون في السفن كالاموات في القبور الا يوم النهر، وهو اليوم الذي غلبوا فيه وحملوا الى سفائن النهر الكبير لتقلهم اسرى . (٨) العبرين : ضفتي النهر . اعتبروا : تعجبوا . اللؤلؤ : اراد به نساء المعتمد شبههن باللؤلؤ لجمالهن ورونقهن وبياضهن . ازباد : جمع زَبَد : رغوة البحر، ويراد بها هنا البحر على الاطلاق . (٩) ابراد : جمع برد وهو الثوب . يقول : ان نساء المعتمد لشدة حزنها ، وفجيعتها، كانت سافرة غير مقنعة تمزق وجوهها باظافرها كما تمزق الاثواب . (١٠) القطائع : جمع القطيعة وهي الهجران، واراد بها هنا السفن التي تقطع بين الاهل والخلان .

وقال ابن عبدون يرثي دولة بني الافطس :

أَلدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ ٱلْعَيْنِ بِٱلْأَثَرِ، فَمَا ٱلْبُكَاءُ عَلَى ٱلْأَشْبَاحِ وَٱلصُّوَرِ؟(١)

فَلَا يَغُرَّنْكَ مِنْ دُنْيَاكَ نَوْمَتُهَا، فَمَا صِنَاعَةُ عَيْنَيْهَا سِوَى ٱلسَّهَرِ

مَا لِلَّيَالِي، أَقَالَ ٱللهُ عَثْرَتَنَا، مِنَ ٱللَّيَالِي، وَخَانَتْهَا يَدُ ٱلْغِيَرِ(٢)

كَمْ دَوْلَةٍ وَلِيَتْ بِٱلنَّصْرِ خِدْمَتَهَا، لَمْ تُبْقِ مِنْهَا، وَسَلْ ذِكْرَاكَ عَنْ خَبَرِ(٣)

هَوَتْ بِدَارَا، وَفَلَّتْ غَرْبَ قَاتِلِهِ، وَكَانَ عَضْباً عَلَى ٱلْأَمْلَاكِ ذَا أَثَرِ(٤)

وَٱسْتَرْجَعَتْ مِنْ بَنِي سَاسَانَ مَا وَهَبَتْ، وَلَمْ تَدَعْ لِبَنِي يُونَانَ مِنْ أَثَرِ(٥)

ومنها يتلهف على ابناء المظفر، وهم ملوك بني الافطس :

بَنِي ٱلْمُظَفَّرِ، وَٱلْأَيَّامُ مَا بَرِحَتْ مَرَاحِلًا، وَٱلْوَرَى مِنْهَا عَلَى سَفَرِ

سُحْقاً لِيَوْمِكُمُ يَوْماً وَلَا حَمَلَتْ بِمِثْلِهِ لَيْلَةٌ فِي غَابِرِ ٱلْعُمُرِ(٦)

---

(١) العين : ذات الشيء ونفسه، ومن امثالهم لا تطلب اثرا بعد عين يضرب لمن ترك شيئاً يراه ثم تبع اثره بعد فوت عينه . وقوله : فما البكاء اي فما يجدي البكاء . (٢) الغير : احداث الدهر . (٣) الضمير في وليت يعود على الليالي ، وفي خدمتها يعود على الدولة . يقول : كم خدمت الليالي دولة فنصرتها ثم قلبت لها ظهر المجن فازالتها . (٤) دارا : اسم لعدة ملوك من الفرس . ولعله يريد دارا الثالث الذي مات مقتولاً سنة ٣٣٠ ق . م . غدر به بسوس امير بختريان وهي ولاية من مملكته . وكان قد لجأ اليها في فراره من اسكندر ذي القرنين بعد انكساره في واقعة إربل . اما الرواية العربية، فتعزو قتله الى الاسكندر ، ذكر ذلك المسعودي في مروج الذهب . فالشاعر هنا يريد بقاتله اسكندر المقدوني لا بسوس . الغرب : الحد . عضباً : سيفاً قاطعاً . الاملاك : جمع ملك . الاثر : هنا الخبر . ولعله اراد الأثر وحركه للشعر . والاثر : جوهر السيف ورونقه . شبه الاسكندر بسيف قاطع ذي رونق يهوي على رؤوس الملوك، او له خبر عظيم مع الملوك . (٥) ساسان : قيل انه ملك من ملوك العجم حاربه دارا ملك الفرس، وغلب كل ما كان له واستولى على ملكه فصار رجلاً من العامة فقيرا يتردد في الاحياء ويستعطي فضرب به المثل ، ونسب اليه كل من تكدى وباشر امرا حقيرا . فيقال فلان من بني ساسان وان لم يكن من اولاده . (٦) سُحقاً : بعداً . ليومكم : اي اليوم الذي زلتم فيه، وانقرض ملككم . الغابر : الباقي والماضي . والمعنيان يصحان للبيت والاول اولى .

مَنْ لِلأَسِرَّةِ، أَوْ مَنْ لِلأَعِنَّةِ، أَوْ ... مَنْ لِلأَسِنَّةِ يُهْدِيهَا إِلَى الثَّغَرِ؟(١)
مَنْ لِلبَرَاعَةِ، أَوْ مَنْ لِلبَرَاعَةِ، أَوْ ... مَنْ لِلسَّمَاحَةِ، أَوْ لِلنَّفْعِ وَالضَّرَرِ؟(٢)
أَوْ دَفْعِ كَارِثَةٍ، أَوْ رَدْعِ آزِفَةٍ، ... أَوْ قَمْعِ حَادِثَةٍ تُعْيِي عَلَى القَدَرِ(٣)
وَيْحَ السَّمَاحِ، وَوَيْحَ البَأْسِ لَوْسُلِبَا، ... وَا حَسْرَةَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا عَلَى عُمَرِ!(٤)
سَقَتْ ثَرَى الفَضْلِ وَالعَبَّاسِ هَامِيَةٌ، ... تُعْزَى إِلَيْهِمْ سَمَاحاً، لَا إِلَى المَطَرِ(٥)

وقال ابو البقاء الرندي يرثي الاندلس :

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ، ... فَلَا يُغَرَّ بِطِيبِ العَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الأُمُورُ، كَمَا شَاهَدْتَهَا، دُوَلٌ، ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ، سَاءَتْهُ أَزْمَانُ
وَهٰذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ، ... وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ
أَيْنَ المُلُوكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَنٍ، ... وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلٌ وَتِيجَانُ؟
أَتَى عَلَى الكُلِّ أَمْرٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، ... حَتَّى قَضَوْا، فَكَأَنَّ القَوْمَ مَا كَانُوا
وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمَنْ مَلِكٍ، ... كَمَا حَكَى عَنْ خَيَالِ الطَّيْفِ وَسْنَانُ(٦)
دَارَ الزَّمَانُ عَلَى دَارَا وَقَاتِلِهِ، ... وَأَمَّ كِسْرَى، فَمَا آوَاهُ إِيوَانُ(٧)

ومنها :

دَهَى الجَزِيرَةَ أَمْرٌ لَا عَزَاءَ لَهُ، ... هَوَى لَهُ أُحُدٌ، وَانْهَدَّ ثَهْلَانُ(٨)
فَاسْأَلْ بَلَنْسِيَةً مَا شَأْنُ مُرْسِيَةٍ، ... وَأَيْنَ شَاطِبَةٌ أَمْ أَيْنَ جَيَّانُ؟(٩)

---

(١) الاسرة : جمع سرير والمراد سرير الملك . الثغر وحرك للشعر : كل فرجة على حدود البلاد يخشى منها هجوم . (٢) البراعة : القلم . (٣) آزفة : مصيبة دانية الساعة . تعيي على القدر : تعجزه . (٤) عمر : هو ابن المظفر محمد بن عبدالله آخر ملوك بني الافطس، قتله يوسف ابن تاشفين سنة ٤٨٧ هـ . (١٠٩٤ م) . (٥) الفضل والعباس : من امراء بني الافطس . هامية : اي سحابة هامية . تُعزى : تُنسب . يقول : ان هذه السحابة تنسب اليهم من اجل سماحها وجودها لانهم اهل السماح والجود ؛ والضمير في اليهم يعود على الامراء الثلاثة عمر والفضل والعباس . (٦) وسنان : من اخذه ثقل النوم . والمعنى : صار كأنه حلم من الاحلام . (٧) مر الكلام على دارا وقاتله في رائية ابن عبدون . (٨) احُد : جبل بالمدينة . ثهلان : جبل بنجد . ومعنى البيت ان بادية العرب مهد الاسلام اضطربت لمصاب الاندلس (٩) هذه اسماء مدن من قواعد الاندلس . ام : هنا بمعنى بل .

وَأَيْنَ قُرْطُبَةٌ دَارُ ٱلْعُلُومِ فَكَمْ ... مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَانُ !
وَأَيْنَ حِمْصٌ وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ تُرَهٍ ... وَنَهْرُهَا ٱلْعَذْبُ فَيَّاضٌ وَمَلْآنُ[1]
قَوَاعِدٌ كُنَّ أَرْكَانَ ٱلْبِلَادِ فَمَا ... عَسَى ٱلْبَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ !
تَبْكِي ٱلْحَنِيفِيَّةُ ٱلْبَيْضَاءُ مِنْ أَسَفٍ ... كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ ٱلْإِلْفِ هَيْمَانُ[2]
عَلَى دِيَارٍ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ خَالِيَةٍ ... قَدْ أَقْفَرَتْ، وَلَهَا بِٱلْكُفْرِ عُمْرَانُ
حَيْثُ ٱلْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا ... فِيهِنَّ إِلَّا نَوَاقِيسٌ وَصُلْبَانُ
حَتَّى ٱلْمَحَارِيبُ تَبْكِي، وَهْيَ جَامِدَةٌ ... حَتَّى ٱلْمَنَابِرُ تَرْثِي، وَهْيَ عِيدَانُ[3]
يَا مَنْ لِذِلَّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمُ ... أَحَالَ حَالَهُمُ جَوْرٌ وَطُغْيَانُ
بِٱلْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ ... وَٱلْيَوْمَ هُمْ فِي بِلَادِ ٱلْكُفْرِ عُبْدَانُ
فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارَى لَا دَلِيلَ لَهُمْ ... عَلَيْهِمُ مِنْ ثِيَابِ ٱلذُّلِّ أَلْوَانُ
وَلَوْ رَأَيْتَ بُكَاهُمْ عِنْدَ بَيْعِهِمُ ... لَهَالَكَ ٱلْأَمْرُ، وَٱسْتَهْوَتْكَ أَحْزَانُ
يَا رُبَّ أُمٍّ وَطِفْلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَا ... كَمَا تُفَرَّقُ أَرْوَاحٌ وَأَبْدَانُ
وَطِفْلَةٍ مِثْلِ حُسْنِ ٱلشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ ... كَأَنَّمَا هِيَ يَاقُوتٌ، وَمَرْجَانُ[4]
يَقُودُهَا ٱلْعِلْجُ عِنْدَ ٱلسَّبْيِ مُكْرَهَةً ... وَٱلْعَيْنُ بَاكِيَةٌ، وَٱلْقَلْبُ حَيْرَانُ[5]
لِمِثْلِ هٰذَا يَذُوبُ ٱلْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ ... إِنْ كَانَ فِي ٱلْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانُ

---

(١) حمص: إشبيلية. (٢) الحنيفية: ملة الاسلام. البيضاء: كناية عن النقية. الهيمان: من اصابه كالجنون من العشق. (٣) المحاريب، جمع محراب: وهو مقام الامام من المسجد. (٤) طفلة: رخصة ناعمة. (٥) العلج: الكافر.

الشكوى والاستعطاف

آلام الملوك والوزراء . شكاواهم . استعطافهم . اصحاب هذا الفن .

هذا نوع يكاد يتصل بالرثاء لما فيه من بكاء على الماضي، وتألم من الحاضر . ويكاد يختص بطبقة الملوك والامراء والوزراء، لما نالهم من النكبات والمحن، فهبطوا من بعد رفعة، وذلوا من بعد معزة، فمن ذلك قول ابن اللبانة في فخر الدولة بن المعتمد ابن عباد، وقد رآه بعد سقوط دولتهم في سوق الصياغة ينفخ الفحم بقصبة الصائغ :

شَكَاتُنَا فِيكَ يَا فَخْرَ ٱلْعُلَى عَظُمَتْ ، وَٱلرُّزْءُ يَعْظُمُ فِيمَنْ قَدْرُهُ عَظُمَا
طُوِّقْتَ مِنْ نَائِبَاتِ ٱلدَّهْرِ مِخْنَقَةً ، ضَاقَتْ عَلَيْكَ ، وَكَمْ طَوَّقْتَنَا نِعَمَا(١)
وَعَادَ طَوْقُكَ فِي دُكَّانِ قَارِعَةٍ ، مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتَ فِي قَصْرٍ حَكَى إِرَمَا(٢)
صَرَّفْتَ فِي آلَةِ ٱلصُّوَّاغِ أَنْمُلَةً ، لَمْ تَدْرِ إِلَّا ٱلنَّدَى وَٱلسَّيْفَ وَٱلْقَلَمَا
يَدٌ عَهِدْتُكَ لِلتَّقْبِيلِ تَبْسِطُهَا ، فَتَسْتَقِلُّ ٱلثُّرَيَّا أَنْ تَكُونَ فَمَا
لِلنَّفْخِ فِي ٱلصُّورِ هَوْلٌ مَا حَكَاهُ سِوَى هَوْلٍ رَأَيْتُكَ فِيهِ تَنْفُخُ ٱلْفَحَمَا(٣)
وَدِدْتُ إِذْ نَظَرَتْ عَيْنِي إِلَيْكَ بِهِ ، لَوْ أَنَّ عَيْنِيَ تَشْكُو قَبْلَ ذَاكَ عَمَى(٤)

وقول المعتمد بن عباد في بناته وهو اسير في اغمات، وقد دخلن عليه يوم الفطر يهنئنه، وعليهن اطمار بالية، واقدامهن حافية، غارقة في الوحل، وهن يغزلن للناس بالاجرة :

فِيمَا مَضَى كُنْتَ بِٱلْأَعْيَادِ مَسْرُورَا ، فَسَاءَكَ ٱلْعِيدُ فِي أَغْمَاتَ مَأْسُورَا(٥)

---

(١) مخنقة : قلادة . (٢) طوقك : اي البلية التي طوقتها . قارعة : اي قارعة الطريق، وهي معظمه وموضع قرع المارة . إرَم : اي إرَم ذات العماد، وهي اما دمشق او الاسكندرية او موضع بفارس . (٣) الصور : البوق، ويوم ينفخ بالصور : يوم القيامة . الفَحَم والفَحْم واحد . (٤) به : الضمير عائد على هول . (٥) اغمات : بلد قرب مراكش .

تَرَى بَنَاتِكَ فِي ٱلْأَطْمَارِ جَائِعَةً ، يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ لَا يَمْلِكْنَ قِطْمِيرَا[1]
يَزِنَ نَحْوَكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُنَّ ، حَسِيرَاتٍ ، مَكَابِيرَا[2]
يَطَأْنَ فِي ٱلطِّينِ ، وَٱلْأَقْدَامُ حَافِيَةٌ ، كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكًا وَكَافُورَا[3]
أَفْطَرْتَ فِي ٱلْعِيدِ ، لَا عَادَتْ إِسَاءَتُهُ ! فَكَانَ فِطْرُكَ لِلْأَكْبَادِ تَفْطِيرَا[4]
قَدْ كَانَ دَهْرُكَ ، إِنْ تَأْمُرْهُ مُمْتَثِلًا ، فَرَدَّكَ ٱلدَّهْرُ مَنْهِيًّا وَمَأْمُورَا
مَنْ بَاتَ بَعْدَكَ فِي مُلْكٍ يُسَرُّ بِهِ ، فَإِنَّمَا بَاتَ بِٱلْأَحْلَامِ مَغْرُورَا

ومن ذلك استعطاف الوزير ابن عمار للمعتمد بن عباد ، وهو في سجن إشبيلية :

سَجَايَاكَ ، إِنْ عَافَيْتَ ، أَدْنَى وَأَسْمَحُ ، وَعُذْرُكَ ، إِنْ عَاقَبْتَ ، أَجْلَى وَأَوْضَحُ[5]
وَإِنْ كَانَ بَيْنَ ٱلْخُطَّتَيْنِ مَزِيَّةٌ ، فَأَنْتَ إِلَى ٱلْأَدْنَى مِنَ ٱللهِ أَجْنَحُ[6]
أَقِلْنِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ رِضًى ، لَهُ نَحْوَ رُوحِ ٱللهِ بَابٌ مُفَتَّحُ
وَعُدْ عَلَى آثَارِ جُرْمٍ جَنَيْتُهُ ، بِهِبَّةِ رُحْمَى مِنْكَ تَمْحُو وَتَصْفَحُ
وَلَا تَلْتَفِتْ رَأْيَ ٱلْوُشَاةِ وَقَوْلَهُمْ ، فَكُلُّ إِنَاءٍ بِٱلَّذِي فِيهِ يَرْشَحُ[7]
وَقَالُوا : « سَيَجْزِيهِ فُلَانٌ بِفِعْلِهِ . » فَقُلْتُ : وَقَدْ يَعْفُو فُلَانٌ وَيَصْفَحُ
أَلَا إِنَّ بَطْشًا لِلْمُؤَيَّدِ يُتَّقَى ، وَلٰكِنَّ حِلْمَ ٱلْمُؤَيَّدِ أَرْجَحُ
وَبَيْنَ ضُلُوعِي مِنْ هَوَاهُ تَمِيمَةٌ ، سَتَشْفَعُ لَوْ أَنَّ ٱلْحِمَامَ مُجَلِّحُ[8]

وشعر الشكوى ، اذا جاء عن الملوك ، فيه اباء وعزة ، وفيه رصانة الشاكي ، وكبر النفس المتظلمة .

---

(١) القطمير : شق النواة او القشرة التي عليها . (٢) حسيرات : متلهفات معييات . (٣) كانها : الضمير يعود على الاقدام . الكافور : طيب من شجر بجبال الهند والصين ، وهو انواع ومنافعه كثيرة (٤) تفطيرا : تشقيقا . (٥) عافيت : وهبت العافية ، ودفعت المكروه . وقوله ادنى : اي ادنى الى دفع المكروه . (٦) اجنح : أميل . (٧) قوله لا تلتفت رأي الوشاة : منصوب على نزع الخافض والصواب لا تلتفت الى رأي الوشاة . (٨) التميمة : خرزة رقطاء تعلق في عنق الطفل دفعاً للعين اللاحة . مجلح : مقدم هاجم .

الهجاء

ضعف الشعر السياسي . هجو البرابرة . محل التكسب . العبث . الفحش بالهجو . شعراؤه .

(لم تقم في الغرب سوق رائجة للهجاء السياسي يناضل بها الشعراء عن احزابهم، فعل شعراء الشرق، الا ما كان بين المضرية واليمنية، في عهد الامراء . غير ان المؤرخين لم يحفظوا لنا شيئاً منه يستحق الذكر، الا ما كان من هجوهم للفرنجة في ذكر حروبهم معهم، او هجوهم للبربر بعد ان اعتد هؤلاء بنفوسهم وارادوا مفاخرة العرب ومكاثرتهم) فمن ذلك قول خلف بن فرج السُميسر، وكان في زمن ملوك الطوائف :

رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي، فَقُلْتُ لَهُ : « أَبَا ٱلْبَرِيَّةِ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ حَكَمُوا؟ »
«أَنَّ ٱلْبَرَابِرَ نَسْلٌ مِنْكَ . »قَالَ : «إِذًا حَوَّاءُ طَالِقَةٌ إِنْ صَحَّ مَا زَعَمُوا ! »

ولم يكن للشعوبية شأن في الاندلس فينبغ منهم شعراء يهاجون العرب كما في المشرق . فاقتصر معظم الهجاء على التكسب والعبث والمجون، ولكنه حفل بالفحش والاقذاع ولعل من مشهوري الهجائين ابو بكر المخزومي الاعمى[1] شاعر غرناطة، وبينه وبين نزهون بنت القلاعي الشاعرة معابثات فاحشة غير حرية بالاثبات . وكذلك ولّادة بنت المستكفي ولها هجاء فاضح في صاحبها ابن زيدون . واكثر الشعراء الذين ظهروا في الاندلس اصطنعوا الهجاء ولكنهم لم يبلغوا فيه مبلغ المشارقة . فكان هذا الفن ضعيفاً عندهم .

---

(١) ابو بكر المخزومي كان حياً بعد الاربعين وخمس مائة للهجرة (١١٤٥ م) .

الحماسة والفخر

ضعف الشعر الحماسي . شعراء مداحون يصفون الحروب .

لم يشهر في الاندلس شعراء فرسان يخوضون معامع القتال ، ويذكرون بلاءهم في مواقف الاهوال، وانما شهر شعراء مداحون وصفوا شجاعة ممدوحيهم، ومعاركهم، وحضوهم على الجهاد فكانوا اشبه بالمصورين يرسمون مشاهد الحروب، ولا يصطلون بنارها . لذلك لم يرتفع شأن الشعر الحماسي عندهم لان هذا الفن لا يقوم قائمه الا في مواطن الشعراء المغاوير . ولم يعرف من شعراء الحماسة الا نفر لا يعتد بهم امثال ابن وهبون[1] لانهم كانوا ينظمون الحماسة بدافع التقليد والتكلف لا بدافع العاطفة والخاطر المطبوع . ودونك شيئا من حماسيات ابن وهبون ومفاخره :

أَتَخْفَى عَلَى ٱلْأَيَّامِ غُرُّ مَنَاقِبِي، وَقَدْ بَذَّ شَأْوِي شَأْوَ كُلِّ نِقَابِ[2]
وَيَرْكَبُنِي رَسْمُ ٱلْخُمُولِ، وَقَدْ غَدَتْ خِصَالُ ٱلْعُلَى وَٱلْمَجْدِ طَوْعَ رِكَابِي؟
سَأَرْمِي بِهِمَّاتِي قُصَارَى مَرَاتِبِي، وَإِنْ كَانَ أَدْنَاهَا يُطِيلُ طِلَابِي[3]
لِتَعْلَمَ أَطْرَافُ ٱلْأَسِنَّةِ أَنَّنِي كَفِيلٌ بِهَا عِنْدَ ٱلصَّدَى بِشَرَابِ[4]
وَتَشْهَدَ أَطْرَافُ ٱلْيَرَاعَاتِ أَنَّنِي بِهِنَّ مُصِيبٌ فَصْلَ كُلِّ خِطَابِ
وَلَيْسَ نَدِيمِي غَيْرَ أَبْيَضَ صَارِمٍ، وَلَيْسَ سَمِيرِي غَيْرَ شَخْصِ كِتَابِ

واصدق الفخر عندهم ما اصطبغ بالعاطفة الدينية ، لان الشاعر الاندلسي كثير المباهاة باسلامه لما بينه وبين جيرانه النصارى من العداء المستحكم والتنافس الشديد .

---

(١) هو عبد الجليل بن وهبون كان من شعراء المعتمد بن عباد، وعرف بالمجون والانصراف الى الوان اللهو والعبث . والراجح انه توفي في اوائل الربع الثاني من القرن السادس للهجرة . (٢) نقاب، مصدر ناقب : اي فاخر وغالب . (٣) قصارى مراتبي : اي غايتها واقصاها . يقول : انه يريد ان يبلغ بهماته ابعد المراتب مع ان ادنى هذه المراتب يطيل تعب طالبه لعزتها ، وما يحول من المصاعب دون البلوغ اليها . (٤) الصدى : العطش . يقول : سارمي بهماتي الى هذه المراتب الرفيعة حتى تعلم الرماح انني كفيل بان اروي دماً عندما تعطش .

الحكم

ضعفها . حالة الفلسفة . حكمهم مبتذلة . شعراء الحكم .

الحكم في الشعر الاندلسي ضعيفة الانتاج، ساذجة التفكير، بديهية التصور، لا تدل على ثقافة ناضجة وعلم واسع . لان الفلسفة والمنطق لم ينتشرا في تلك الربوع، إبان دخولهما اليها كما انتشرا في البلاد الشرقية، ليستقي منهما الشعراء، وانما كان يعنى بهما افراد متخصصون . ولم ينبغ فلاسفة الغرب المشهورون الا في القرن السادس للهجرة بعد ان امحت معالم الفلسفة في المشرق . وسبب ذلك ما كان للفقهاء من سلطان على ملوك الاندلس فانهم قهروا حرية التفكير، وكفّروا كل متفلسف ومتمنطق، وافتوا برجمه ونفيه واحراق كتبه . وكان الدهماء على جهلهم يجارون اهواء العلماء، ويثورون على الفلاسفة ويبطشون بهم، فيضطر السلطان الى استرضائهم باتلاف كتب الفلسفة كما فعل الحاجب المنصور، وبمعاقبة المتهمين بها كما فعل صاحب إشبيلية بابن هاني اذ امر بابعاده لانه كان يأخذ بمذاهب الفلاسفة .

وابن هاني اكثر الشعراء الاندلسيين احتفالاً بالحكمة وضرب المثل، يتحدى بذلك المتنبي، ولكنه يقصر عنه اشواطاً، اذ انه لم تكن له عبقريته، ولم يكن لديه ذلك المعين الفلسفي الذي اغترف منه ابو الطيب فجاءت حكمته غير ناضجة في كثرتها، كما جاءت حكمة غيره من شعراء بلاده، وهي في الغالب قائمة على شكوى الدهر، وذكر الموت، والتحذير من الدنيا الغرور وامثال هذه الاشياء التي ابتذلتها افواه العامة . فمن قوله في رثاء ولد :

وَهَبَ ٱلدَّهْرُ نَفِيساً فَٱسْتَرَدَّ، رُبَّمَا جَادَ بَخِيلٌ فَحَمِدْ
إِنَّمَا أَعْطَى فَوَاقِي نَاقَةٍ، بِيَدٍ شَيْئاً تَلَقَّاهُ بِيَدْ(١)

(١) الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت لان الناقة تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدر ثم تحلب . وفي الحديث : « العيادة قدر فواق ناقة . » اي زيارة المريض يلبث فيها الزائر زماناً يسيراً كزمان فواق الناقة . وهنا قوله : اعطى فواقي ناقة على تشبيه الفواق والمراد اعطى وقتاً قصيراً .

خَابَ مَنْ يَرْجُو زَمَانًا دَائِمًا تُعْرَفُ ٱلْبَأْسَاءُ مِنْهُ وَٱلنَّكَدْ
فَإِذَا مَا كَدَرَ ٱلْعَيْشَ، فَنَا، وَإِذَا مَا طَيَّبَ ٱلزَّادَ، نَفِدْ[1]

وكذلك ابن زيدون نظم في الحكمة فلم يزد على ابن هاني ، قال من قصيدة :

أَلدَّهْرُ إِنْ أَسأَلْ، فَصِيحٌ أَعْجَمُ، يُعْطِي ٱعْتِبَارِي مَا جَهِلْتُ، فَأَعْلَمُ[2]
وَإِذَا ٱلْفَتَى قَدَرَ ٱلْحَوَادِثَ قَدْرَهَا، سَاوَى لَدَيْهِ ٱلشَّهْدَ مِنْهَا ٱلْعَلْقَمُ[3]
وَإِذَا نَظَرْتَ، فَلَا ٱغْتِرَارٌ يَقْتَضِي كُنْهَ ٱلْمَصِيرِ، وَلَا تَوَقٍّ يَعْصِمُ[4]

واراد ابن وهبون ان يتفلسف فجاءت فلسفته غامضة معقدة تفتقر الى صقل وتهذيب . وربما كان اعمق تفكيراً من سواه لانه ادرك القرن السادس للهجرة حيث اخذت الفلسفة الاندلسية بالنضج والازدهار . فمن قوله :

نَفْسِي وَجِسْمِي إِنْ وَضَعْتُهُمَا مَعًا، آلٌ يَذُوبُ، وَصَخْرَةٌ خَلْقَاءُ[5]
لَوْ تَعْلَمُ ٱلْأَجْبَالُ كَيْفَ مَآلُهَا عِلْمِي، لَمَا ٱمْتَسَكَتْ لَهَا أَرْجَاءُ[6]
إِنَّا لَنَعْلَمُ مَا يُرَادُ بِنَا فَلِمْ تُعْيِي ٱلْقُلُوبُ، وَتَغْلِبُ ٱلْأَهْوَاءُ؟[7]
طَيْفُ ٱلْمَنَايَا فِي أَسَالِيبِ ٱلْمُنَى، وَعَلَى طَرِيقِ ٱلصِّحَّةِ ٱلْأَدْوَاءُ[8]
تَتَعَاقَبُ ٱلْأَضْدَادُ مِمَّا قَدْ تَرَى جَلَبَتْ عَلَيْكَ ٱلْحِكْمَةُ ٱلشَّنْعَاءُ[9]

---

(١) غا : زاد . نفد : فني . (٢) اعتباري : اختباري الاشياء ونظري اليها حاكماً عليها بحكمي . ما : مفعول ثان ايعطي . (٣) العلقم : كل شيء فيه مرارة شديدة . (٤) يقول : اذا نظرت الى الحياة الدنيا نظرة حكيم ، علمت انه ليس الاغترار بنعيمها هو الذي يستوجب حقيقة المصير اي الموت . وكذلك ليس اتقاؤها بعاصم صاحبه من الموت . (٥) الآل : السراب . خلقاء : ملساء مُصْمتة . شبه النفس في اتصالها بالجسم بالسراب الذي يخدعك مرآه ، فتظنه ماء فاذا تتبعته متبيناً حقيقته ذاب امامك ، فالنفس اذاً خداعة زائلة كالسراب والجسم يبقى بعدها كانه الصخرة الملساء . (٦) الاجبال : جمع جبل . مآلها : مصيرها . الارجاء : النواحي ، مفردها رَجا . يقول : لو علمت الجبال ان مصيرها الفناء لدكت من الخوف والهلع . (٧) لِمْ : سكنت للشعر والاصل لِمَ . القلوب : العقول . يقول : نحن نعلم مصيرنا فلماذا تتعب العقول في البحث عنه ، وتغلب عليها اهواء النفس فتقودها الى التفلسف فيما هو معلوم . (٨) ادواء : جمع داء . (٩) يقول : ان الصور المتضادة في ابحاث الحياة والموت هي نتيجة الفلسفة الشنعاء .

الزهد

اسباب ظهوره . الحروب . سلطة الفقهاء . التوبة بعد الكبائر . متزهدو الشرق . شعراء الزهد .

(غير عجيب ان يظهر فن الزهد في الشعر الاندلسي، وقد علمنا ما للفقهاء من سلطان على الخاصة والعامة ، فلا بد لهذا السلطان ان يقود الى التعصب للدين ، والاستمساك باحكامه، ثم الى التظاهر بالعبادة والتقوى، والاقتداء بالاولياء الصالحين، والنفور من الدنيا وزينتها والابتعاد عن زخرفها وغرورها، فيكثر الشعراء المتزهدون حتى يصبح الزهد صناعة مطلوبة، وزياً مرغوباً فيه . فمنهم من ينظمه بعامل التقوى والصلاح . ومنهم من ينظمه اقتداء بغيره وارضاء للفن . ومنهم من ينظر الى الدنيا نظرة خائف فيذم غرورها ، ويذكر ذنوبه ، وجنونه بلذات الحياة، فيندم ويعتذر الى الله ، ثم يعود الى عبثه ومعاصيه . وهذه اختلاجات نفسية تحدث لصاحب الكبائر حيناً بعد حين .)

ولا ريب ان كثرة الحروب ، وتوالي الفتن والمحن طبعت في نفوس الشعراء الحساسة آلاماً عميقة . فنظروا الى تقلب الاحوال نظرة تشاؤم فقادتهم الى الطعن على الدهر وصروفه ، وذم الدنيا وتلونها مما هو طبيعي في النفوس التي تتقلب عليها احوال مختلفة بين شدة ورخاء ، وخوف وأمن ، وقلق وارتياح .

فمثل هذه الاحداث والغِيَر على اختلاف صورها والوانها تدفع الانسان الدقيق الشعور الى التفكير بمصيره بعد هذه الحياة التي لا تبتسم الا لتكشر عن الانياب . فيهوله سوء المصير، فيفزع الى ربه تائباً مستغفراً ، ولطالما قربت الشدائد الى الله من ابتعدوا عنه . واليك شيئاً من زهدياتهم . قال ابن عبد ربه في توبته :

أَلا إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا غَضَارَةُ أَيْكَةٍ ، إِذَا ٱخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبُ (١)

---

(١) الغضارة : الطراوة في النبات . الايكة : واحدة الايك وهو ملتف الشجر الكثير .

هِيَ ٱلدَّارُ، مَا ٱلْآمَالُ إِلَّا فَجَائِعٌ عَلَيْهَا، وَلَا ٱللَّذَّاتُ إِلَّا مَصَائِبُ
فَكَمْ سَخَّنَتْ بِٱلْأَمْسِ عَيْنًا قَرِيرَةً، وَقَرَّتْ عُيُونًا، دَمْعُهَا ٱلْيَوْمَ سَاكِبُ[1]
فَلَا تَكْتَحِلْ عَيْنَاكَ مِنْهَا بِعَبْرَةٍ، عَلَى ذَاهِبٍ مِنْهَا، فَإِنَّكَ ذَاهِبُ[2]

وقال ابن حمديس :

يَا ذُنُوبِي ثَقَّلْتِ وَٱللهِ ظَهْرِي، بَانَ عُذْرِي فَكَيْفَ يُقْبَلُ عُذْرِي[3]
كُلَّمَا تُبْتُ سَاعَةً عُدْتُ أُخْرَى لِضُرُوبٍ مِنْ سَوْءِ فِعْلِي وَهُجْرِي[4]
يَا رَفِيقًا بِعَبْدِهِ، وَمُحِيطًا عِلْمُهُ بِٱخْتِلَافِ سِرِّي وَجَهْرِي[5]
مِلْ بِقَلْبِي إِلَى صَلَاحِ فَسَادِي مِنْهُ، وَٱجْبُرْ بِرَأْفَةٍ مِنْكَ كَسْرِي[6]
وَأَجِرْنِي بِمَا جَنَاهُ لِسَانِي، وَتَنَاجَتْ بِهِ وَسَاوِسُ فِكْرِي[7]

---

(١) سخّنت عينًا : ابكتها دموعًا سُخنة اي حارة والدموع الحارة كناية عن دموع الحزن . قرت عيونًا : اي صبت فيها ماءً باردًا، وبرودة العين كناية عن سرورها، ودمع الفرح عندهم بارد . (٢) عبرة : دمعة قبل فيضها . (٣) بان : غاب . والمراد ليس له عذر . (٤) لضروب : لانواع . وهجري : افحاشي في المنطق . (٥) باختلاف سري وجهري : يريد انه مؤمن صحيح الايمان في باطنه ، ولكن اعماله الظاهرة سيئة . (٦) منه : اي من قلبي . (٧) بما : الباء هنا سببية اي من اجل ما جناه لساني .

التصوف

(نتيجة التزهد . متصوفو الشرق . شعراء التصوف .)

التصوف هو الغاية التي ينتهي اليها التزهد في الاسلام، وانتشار الزهد في الاندلس افضى الى التصوف. وكان لرحلات المشارقة الى الغرب، ورحلات المغاربة الى الشرق يد في اتصال متزهدي الاندلس بالمتصوفة المشرقيين . فاخذوا عنهم طرائقهم واصطلاحاتهم، واراءهم، ونظموا الشعر الصوفي على مثلهم (والمع شعرائهم ابن العربي الشهير[1] شيخ المتصوفين، فان له موشحات صوفية سائرة، منها التي اولها سرائر الاعيان. وفيها يقول :

سَرَائِرُ ٱلْأَعْيَانْ ، لَاحَتْ عَلَى ٱلْأَكْوَانْ ، لِلنَّاظِرِينْ ،
وَٱلْعَاشِقُ ٱلْغَيْرَانْ ، مِنْ ذَاكَ فِي حَرَّانْ ، يُبْدِي ٱلْأَنِينْ[2]

---

(١) هو محيي الدين بن العربي الحاتمي الطائي الاندلسي . ولد بمرسية، وانتقل الى اشبيلية ثم سافر الى الشرق، ومات في دمشق، وقبره في محلة الصالحية . ولد سنة ٥٦٠ وتوفي سنة ٦٣٨ هـ . (١١٦٤ - ١٢٤٠ م) اثاره كثيرة اشهرها الفتوحات المكية في التصوف .

(٢) السرائر : الخفايا مفردها سريرة . الاعيان : حقائق الاشياء المدركة بالعيان . العاشق الغيران : الصوفي المريد المعرفة برغبة وتوجد . حرّان : رملة بالبادية كنى بها عن شدة الظمإ، والحرّان ايضاً الشديد العطش .

الوصف

تفننهم . تعدد موصوفاتهم . براعتهم في بعضها

تفنن الاندلسيون في شتى الاوصاف حتى فاقوا المشارقة في بعضها كوصف الطبيعة الناعمة، والمدن العامرة . فكل شاعر منهم متصل بالطبيعة، مشغوف بعمارة بلاده، وليس في الشرق مثلهم الا افذاذ معدودون . وكان لهم يد في وصف الفلوات الخالية، والوحوش الضارية، والخيل والابل . وبرعوا في وصف مجالس اللهو والغناء والرقص والشراب وآلته . ووصفوا الصيد وادواته، والنساء والغلمان واحوالهم، وطيف الخيال . ووصفوا الحروب والسلاح والسفن . ووصفوا الدنيا والموت وانقراض الممالك وغير ذلك مما يتناول الحضارة والعمارة، والحياة الاجتماعية في حالتي السلم والترف، والحرب والعناء .

وصف المعارك

كثرة الحروب في الاندلس . وصف الجيوش . الخرّاقات . الشعراء .

لا بدع ان يكون لوصف المعارك نصيب وافر في الشعر الاندلسي، فان المسلمين لم يبيتوا ليلة في اسبانية الا على حرب وشيكة، او حرب يصطلون بلظاها . ولقد احصيت الوقائع التي نشبت بينهم وبين الفرنجة منذ دخولهم الاندلس الى يوم خروجهم منها، فاذا هي سبع مائة واقعة وثلاثة الاف ، ما عدا الفتن الداخلية التي اثارها المسلمون بعضهم على بعض . فحفلت مدائح الملوك والامراء بذكر المعارك والجيوش والعدد والخرّاقات . حتى ان ابن عبد ربه نظم ارجوزة في نحو خمسين بيتاً واربع مائة وصف فيها مغازي عبد الرحمن الناصر وفتوحه من سنة ٣٠١ الى ٣٢٢ هـ . (٩١٣ الى ٩٣٣ م) .

وهذه الارجوزة مع طولها لا تعد في طبقة الملاحم، لضعف الخيال الشعري فيها، فانها مجرد اخبار وسرد حوادث ، تمتّ الى التاريخ اكثر مما تمتّ الى الشعر . واليك شيئاً من احاسنها :

فَأَشْرَعَتْ بَيْنَهُمُ ٱلرِّمَاحُ ، وَقَدْ عَلَا ٱلتَّكْبِيرُ وَٱلصِّيَاحُ
وَفَارَقَتْ أَغْمَادَهَا ٱلسُّيُوفُ ، وَفَغَرَتْ أَفْوَاهَهَا ٱلْحُتُوفُ
وَٱلْتَقَتِ ٱلرِّجَالُ بِٱلرِّجَالِ ، وَٱنْغَمَسُوا فِي غَمْرَةِ ٱلْقِتَالِ[1]
فِي مَوْقِفٍ زَاغَتْ بِهِ ٱلْأَبْصَارُ ، وَقَصُرَتْ فِي طُولِهِ ٱلْأَعْمَارُ
وَهَبَّ أَهْلُ ٱلصَّبْرِ وَٱلْبَصَائِرِ ، فَأَزْعَقُوا عَلَى ٱلْعَدُوِّ ٱلْكَافِرِ[2]
فَٱنْقَضَّتِ ٱلْعِقْبَانُ وَٱلسَّلَالِقَهْ ، رَهْقاً عَلَى مُقَدَّمِ ٱلْجَلَالِقَهْ[3]

---

(١) غمرة القتال : شدته . (٢) ازعقوا : اي ازعقوا السير : عجلوا به . (٣) السلالقة : اراد بها جمع سلوقي : الكلب المنسوب الى سلوق وهو احسن كلاب الصيد واخفها، وسلوق

عِقْبَانُ مَوْتٍ تَخْطَفُ ٱلْأَرْوَاحَا، وَتُشْبِعُ ٱلسُّيُوفَ وَٱلرِّمَاحَا
فَٱنْهَزَمَ ٱلْخِنْزِيرُ عِنْدَ ذَاكَا، وَٱنْكَشَفَتْ عَوْرَتُهُ هُنَاكَا(١)

وللسان الدين بن الخطيب قصيدة كتبت على حيطان الحمراء، ذكر فيها انتصار الغني بالله محمد بن ابي الحجاج، واستعادته الملك بعد ان كان خلع عنه واضطر الى مهاجرة الاندلس والاحتماء بالمغرب. وتشتمل هذه القصيدة على وصف السفن والجياد، والسيف والرمح، وموقف السلطان في الحرب، وموقف جيشه. قال منها:

لِلّٰهِ مَوْقِفُكَ ٱلَّذِي وَثَبَاتُهُ، وَثَبَاتُهُ مَثَلٌ بِهِ يُتَمَثَّلُ(٢)
وَٱلْخَيْلُ خَطٌّ، وَٱلْمَجَالُ صَحِيفَةٌ، وَٱلسُّمْرُ تَنْقُطُ، وَٱلصَّوَارِمُ تَشْكُلُ(٣)
وَٱلْبِيضُ قَدْ كَسَرَتْ حُرُوفَ جُفُونِهَا، وَعَوَامِلُ ٱلْأَسَلِ ٱلْمُثَقَّفِ تَعْمَلُ(٤)
لِلّٰهِ قَوْمُكَ عِنْدَ مُشْتَجَرِ ٱلْقَنَا، إِذْ ثَوَّبَ ٱلدَّاعِي ٱلْمُهِيبُ، فَأَقْبَلُوا(٥)
قَوْمٌ إِذَا لَفَحَ ٱلْهَجِيرُ وُجُوهَهُمْ، حُجِبُوا بِرَايَاتِ ٱلْجِهَادِ وَظُلِّلُوا(٦)

وكذلك ابن هاني الاندلسي وصف حراقات المعز لدين الله الفاطمي، فاجاد واحسن. قال من قصيدة:

أَمَا وَٱلْجَوَارِي ٱلْمُنْشَآتِ ٱلَّتِي سَرَتْ، لَقَدْ ظَاهَرَتْهَا عُدَّةٌ وَعَدِيدُ(٧)

قرية في اليمن. اراد بالعقبان الفرسان، وبالسلالقة خيولهم. رهقًا: أي رهقًا سكنت للشعر. والرهق: العجل، واللحاق مع الدنو من الملحوق. الجلالقة: الاسبانيون، مفردها جليقي منسوب الى جليقية في اسبانية، وهي غاليس.

(١) الخنزير: العدو او مقدم الجلالقة. العورة: كل خلل يحدث في الجيش ابان الحرب، فيؤدي الى انكساره. (٢) وثباته الاولى من وثب. والثانية من ثبت. (٣) جعل الرماح في طعنها كأنها تضع النقط على الصحيفة، والسيوف في قطعها كانها تضع الحركات. (٤) جفونها: اغمادها. العوامل: صدور الرماح. الاسل: الرماح. المثقف: المقوم. وقوله: كسرت حروف جفونها: اي فارقت اغمادها لا تريد الرجوع اليها، وكسر الحروف والعوامل العاملة من التلميحات النحوية. (٥) مشتجر القنا: مشتبك الرماح. ثوّب: استنجد واستغاث. الداعي المهيب: الممدوح. (٦) لفح: اصاب بالاحراق. الهجير: الحر الشديد. (٧) والجواري: الواو للقسم. الجواري: السفن. ظاهرتها: عاونتها.

قِبَابٌ كَمَا تُزْجَى ٱلْقِبَابُ عَلَى ٱلْمَهَا، وَلٰكِنَّ مَنْ ضَمَّتْ عَلَيْهِ أُسُودُ[١]
وَمَا رَاعَ مَلْكَ ٱلرُّومِ إِلَّا ٱطِّلَاعُهَا، تُنَشَّرُ أَعْلَامٌ بِهَا وَبُنُودُ
عَلَيْهَا غَمَامٌ مُكْفَهِرٌّ صَبِيرُهُ، لَهُ بَارِقَاتٌ جَمَّةٌ، وَرُعُودُ[٢]
مَوَاخِرُ فِي طَامِي ٱلْعُبَابِ كَأَنَّهَا لِعَزْمِكَ بَأْسٌ، أَوْ لِكَفِّكَ جُودُ[٣]
مِنَ ٱلرَّاسِيَاتِ ٱلشُّمِّ لَوْلَا ٱنْتِقَالُهَا، فَمِنْهَا قِنَانٌ شُمَّخٌ وَرُيُودُ[٤]
مِنَ ٱلطَّيْرِ إِلَّا أَنَّهُنَّ جَوَارِحٌ، فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا ٱلنُّفُوسُ مَصِيدُ[٥]
مِنَ ٱلْقَادِحَاتِ ٱلنَّارِ تُضْرَمُ لِلصَّلَى، فَلَيْسَ لَهَا يَوْمَ ٱللِّقَاءِ خُمُودُ[٦]
إِذَا زَفَرَتْ غَيْظًا تَرَامَتْ بِمَارِجٍ، كَمَا شَبَّ مِنْ نَارِ ٱلْجَحِيمِ وَقُودُ[٧]
فَأَفْوَاهُهُنَّ ٱلْحَامِيَاتُ صَوَاعِقٌ، وَأَنْفَاسُهُنَّ ٱلزَّافِرَاتُ حَدِيدُ
لَهَا شُعَلٌ فَوْقَ ٱلْغِمَارِ كَأَنَّهَا دِمَاءٌ تَلَقَّتْهَا مَلَاحِفُ سُودُ[٨]
تُعَانِقُ مَوْجَ ٱلْبَحْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ سَلِيطٌ لَهَا، فِيهِ ٱلذُّبَالُ عَتِيدُ[٩]

---

(١) تزجى : تساق . المها :البقر الوحشي، وهو مستعار هنا، مفرده مَهاة . يقول : هذه السفن هي اشبه بالهوادج التي تساق وعليها النساء الحسان العيون، ولكن ليس عليها نساء بل رجال كالاسود . (٢) مكفهر :متراكب . الصبير : السحاب الابيض الذي يصير بعضه فوق بعض . يشير الى ما تقذفه الحراقات من النار والنفط، وما يتبع ذلك من اصوات ودخان . (٣) يقول : ان هذه السفن صورة لشدة بأس الممدوح في قهرها الاعداء، وصورة لكرمه في ما ينال اصحابها من الغنائم . (٤) قنان : جمع قُنّة وهي اعلى الجبل . ريود : جمع رَيْد :الحرف الناتئ في عرض الجبل . يقول : هي معدودة من الجبال الراسية العالية لولا حركاتها وانتقالها، وفيها من الجبال رؤوس عالية، ونواتئ . (٥) جوارح الطير : ما صاد منها . يقول : هذه السفن معدودة من الطير في سرعتها وامتداد اشرعتها واصطفافها، ثم استدرك فقال انها من الطير الجوارح . (٦) الصلى : مقاساة حرارة النار . اللقاء : الحرب حيث يلتقي الجيشان . (٧) زفرت غيظاً : اي غيظاً من العدو؛ جعل لها احساساً وشعوراً . المارج : الشعلة ذات اللهيب الشديد . الوقود : ما توقد به النار . (٨) الغمار : جمع غَمْر، وهو الماء الكثير ومعظم البحر . شبه مياه البحار التي تتلقف هذه الشعل بالملاحف السود . (٩) السليط : الزيت . الذُبال : جمع ذُبالة وهي فتيلة المصباح . عتيد : معد مهيأ . يقول : تعانق هذه الشعل المتساقطة موج البحر، فكأنه زيت لها اعدت فيه الفتائل للاشتعال .

الغزل

دواعي الغزل في الاندلس . الاسلوب البدوي . الاسلوب الحضري . الاوصاف المادية . الاوصاف الروحانية . التذلل للحبيب . غزل المؤنث غزل المذكر . الشعر الاشقر . العيون الزرق . الغزل النصراني . تشبيه الحبيب بالرياحين . تفننهم في استخراج التشابيه المألوفة . شعراء الغزل .

كان كل ما في الاندلس يدعو الى الغزل والنسيب . فمن طبيعة فتانة ، الى حضارة وعمران ، الى حدائق ورياض ، الى مجالس للهو والخمر والغناء ، الى سبي متواصل واسواق للنخاسة رائجة يباع فيها الجواري والغلمان باثمان بخسة لكثرتهم . فكان من ذلك ان امعن اهل الاندلس في حياة النعمة والترف ، واخلدوا الى الحب والغزل . وكان للشعراء قسط وافر من هذه الحياة الرخية ، فتغزلوا وافرطوا في التشبيب . فمنهم من كان يحن الى الاسلوب البدوي ، فيذكر اماكن العرب في البادية ، وعرائس الشعر عندهم ، او يحذو حذو امرئ القيس وابن ابي ربيعة في القصص الغرامي واجتياز الاهوال الى من يحب كما قال ابو عامر بن شهيد معارضاً رائية عمر :

وَأُخرَى اعْتَلَقْنَا دُونَهُنَّ وَدُونَهَا ... قُصُورٌ ، وَحُجَّابٌ ، وَوَالٍ ، وَمِعْشَرُ (١)

يُزَيِّنُهَا مَاءُ النَّعِيمِ ، وَحَفَّهَا ... مِنَ الْعَيْشِ فِينَانُ الْأَرَاكَةِ أَخْضَرُ (٢)

إِذَا رَامَهَا ذُو حَاجَةٍ صَدَّ وَجْهَهُ ... ظُبَى الْبَاتِرَاتِ ، وَالْوَشِيجُ الْمُكَسَّرُ (٣)

---

(١) اعتلقنا : احببنا . دونهن : اي دون النساء . ودونها : اي دون الوصول اليها .
(٢) فينان : ذو الافنان ، اي الاغصان . الاراكة : شجرة تتخذ منها المساويك ، والمراد عيش ناعم غض . (٣) ظبى : جمع ظبة وهي حد السيف . الباترات : السيوف القواطع . الوشيج : الرماح وشجرها . وقوله المكسر ، كناية عن كثرة حروب اهلها .

وَمِنْ قُبَّةٍ لَا يُدْرِكُ الطَّرْفُ رَأْسَهَا ، تَزِلُّ بِهَا رِيحُ الصَّبَا ، فَتَحَدَّرُ[1]
إِذَا زَاحَمَتْ فِيهَا الْمَخَارِمَ صَوَّبَتْ هُبُوبًا عَلَى بُعْدِ الْمَدَى وَهْيَ تَجْأَرُ[2]
تَكَلَّفْتُهَا ، وَاللَّيْلُ قَدْ جَاشَ بَحْرُهُ ، وَقَدْ جَفَلَتْ أَمْوَاجُهُ تَتَكَسَّرُ[3]
وَمِنْ تَحْتِ حِضْنَيْ أَبْيَضٍ ذُو شَقَائِقٍ ، وَفِي الْكَفِّ مِنْ عَسَّالَةِ الْخَطِّ أَسْمَرُ[4]
إِلَى بَيْتِ لَيْلَى ، وَهْوَ فَرْدٌ بِذِي الْغَضَا ، يُضِيءُ كَعَيْنِ الْمُسْتَهَامِ ، وَيَزْهَرُ[5]

وهذا الغزل بيّن التقليد والتكلف ولذلك لم يكن له حظ كبير عندهم ، لتمكن الحضارة الجديدة من نفوسهم ، وانفصالهم عن اهل البادية ، فخرجوا على الاسلوب القديم في كثرتهم ، وانصرفوا الى وصف حياتهم ، وما فيها من عبث ولهو ومجون ، فتهتكوا في غزلهم ، واسرفوا في التهتك ولاسيما شعراء ملوك الطوائف ومن جاء بعدهم ، اذ بلغ الغزل عندهم الى حالة مزرية في معانيه والفاظه .

واعتمد الاندلسيون على الاوصاف المادية في ذكر احبتهم ، كما اعتمد عليها المشرقيون ، فوصفوا الشعر والعين ، والخد والثغر والقامة وسواها ، وحلوها بالتشابيه الطبيعية المألوفة ، وغاصوا في لجج ارواحهم ، فوصفوا لوعة النفس العاشقة ، واشتياقها لقرب الحبيب ، والاستمتاع بجماله ، ومواقف اللقاء والوداع وغير ذلك مما هو داخل في اغراض النسيب . وانسوا بعادة التذلل للحبيب ، والتعبد له ، ومناداته بالسيد والمولى كقول الرمادي[6] :

---

(١) تزل بها : تمر سريعاً . الصبا : ريح تهب من الشرق ، وصف علو قبتها فقال ان الطرف لا يدرك اعلاها . ثم قال ان الريح تمر بها فتتحدر عنها ولا تزعزعها ، لعلوها وتينها . (٢) المخارم : جمع مَخْرِم وهو انف الجبل والمراد هنا اعالي القبة . صوّبت : ضد صعدت . تجأر : تصوّت . يقول : اذا زاحمت هذه الريح اعالي القبة انحدرت عنها لبعد مداها وهي تصوّت . (٣) تكلفتها : اي تجشمت القصد اليها . جاش بحره : اشتد ظلامه . امواجه تتكسر : اي يُرخى فيه سدل فوق سدل . (٤) ابيض : سيف . شقائق : بروق . العسالة : الرماح اللدنة . الخط : مرفأ في البحرين تباع فيه الرماح . اسمر : رمح . (٥) الى بيت ليلى : يعود الى تكلفتها . الغضا : شجر عظيم يحسن فحمه لصلابته ، وارض لبني كلاب ، وواد بنجد . واراد بعين المستهام نورها الفائض من حرارة الشوق ، او من تلألؤ الدموع . (٦) هو ابو عمر يوسف بن هارون المعروف بالرمادي ، شاعر قرطبي مجيد سريع القول ، عاصر المتنبي ، توفي سنة ٤٠٣ هـ . (١٠١٢ م) .

أَوَمَا لِتَقْبِيلِ ٱلْبِسَاطِ خُنُوعَا ، فَوَضَعْتُ خَدِّي فِي ٱلتُّرَابِ خُضُوعَا[١]
مَا كَانَ مَذْهَبُهُ ٱلْخُنُوعَ لِعَبْدِهِ ، إِلَّا زِيَادَةَ قَلْبِهِ تَقْطِيعَا

وشبيوا بالجواري والغلاميات والغلمان، وذكروا مجالسهم، ووصفوا حركاتهم وسكناتهم، وقصوا اخبارهم معهم . قال ابو عامر بن شُهيد :

ظَبْيَةٌ دُونَ ٱلظِّبَا قَدْ قُصِّصَتْ ، فَأَتَتْ غَيْدَاءَ فِي شَكْلِ صَبِي[٢]
فُتِحَ ٱلْوَرْدُ عَلَى صَفْحَتِهَا ، وَحَمَاهُ صُدْغُهَا بِٱلْعَقْرَبِ[٣]

وقال الرَّفَّاء[٤] يصف محبوبه وقد رآه يبل عينيه بريقه ويظهر انه يبكي وليس بباك :

يَبُلُّ مَآقِي زَهْرَتَيْهِ بِرِيقِهِ ، وَيَحْكِي ٱلْبُكَا عَمْدًا كَمَا ٱبْتَسَمَ ٱلزَّهْرُ[٥]
وَيُوهِمُ أَنَّ ٱلدَّمْعَ بَلَّ جُفُونَهُ ، وَهَلْ عُصِرَتْ يَوْمًا مِنَ ٱلنَّرْجِسِ ٱلْخَمْرُ[٦]

وشاع عندهم التشبيب بالشعر الاشقر والعيون الزرق لما كانوا يصيبون من سبي فرنجة الشمال وهم زرق شقر في الغالب، ولم يشع ذلك عند المشارقة لغلبة السواد على الشعور والعيون، ولايثارهم اياه على الزرقة والشقرة . قال الشَّنْتَرِيني[٧] :

وَمُهَفْهَفٍ أَبْصَرْتُ فِي أَطْوَاقِهِ ، قَمَرًا بِآفَاقِ ٱلْمَحَاسِنِ يُشْرِقُ[٨]
تَقْضِي عَلَى ٱلْمُهَجَاتِ مِنْهُ صَعْدَةٌ ، مُتَأَلِّقٌ فِيهَا سِنَانٌ أَزْرَقُ[٩]

وكان من جراء اختلاطهم بالنصارى، ان شاع عندهم الغزل النصراني، وذكر الكنائس والقساوسة والصلبان كغزل ابن الحدّاد في نُوَيرة النصرانية ، وكأن

---

(١) البساط : الارض المبسطة المستوية، او هو البساط بالكسر . خنوعاً : ذلًا . (٢) دون الظبا : غير الظبا . غيداء : لينة الاعطاف مائلة العنق . (٣) صفحتها : خدها . العقرب : مستعار للشعر المتدلي على الصدغ . (٤) هو ابو عبدالله محمد بن غالب المعروف بالرفاء، ينتسب الى رُصافة الاندلس وهي بُليدة عند بلنسية . توفي بالقة سنة ٥٧٢ هـ . (١١٧٦ م) . (٥) اي كما ابتسم الزهر للندى . (٦) اراد بالنرجس عيونه، وبالخمر ريقه . (٧) هو ابو محمد عبدالله بن محمد البكري منسوب الى شَنْتَرين بلدة في الاندلس . توفي بالمرية سنة ٥١٧ هـ . (١١٢٣ م) . وكان قليل الحظ وعاش محروماً . (٨) الاطواق، جمع طَوق : ما استدار وحلي به العنق . (٩) الصعدة : القناة المستوية والمراد قامته . والمراد بسنانها الازرق عينه الزرقاء .

يهواها، فلم ترضَ به بعلًا لاختلاف دينها عن دينه، فهام بها واكثر من التشبيب. وفيها يقول:

فَإِنَّ ٱلْحُسْنَ قَدْ وَلَّا ... كِ إِحْيَائِي وَإِهْلَاكِي
وَأَوْلَعَنِي بِصُلْبَانٍ، ... وَرُهْبَانٍ وَنُسَّاكِ
وَلَمْ آتِ ٱلْكَنَائِسَ عَنْ ... هَوًى فِيهِنَّ لَوْلَاكِ
وَهَا أَنَا مِنْكِ فِي بَلْوَى، ... وَلَا فَرَجٌ لِبَلْوَاكِ
وَلَا أَسْطِيعُ سِلْوَانًا، ... فَقَدْ أَوْثَقْتِ أَشْرَاكِي
وَكَمْ أَبْكِي عَلَيْكِ دَمًا، ... وَلَا تَرْثِينَ لِلْبَاكِي
فَهَلْ تَدْرِينَ مَا تَقْضِي ... عَلَى عَيْنَيَّ عَيْنَاكِ؟
وَمَا يُذْكِيهِ مِنْ نَارٍ، ... بِقَلْبِي نُورُكِ ٱلذَّاكِي[1]
نُوَيْرَةُ إِنْ قَلَيْتِ فَإِنَّنِي أَهْوَاكِ أَهْوَاكِ![2]
وَعَيْنَاكِ ٱلشَّهِيدَانِ بِأَنِّي بَعْضُ قَتْلَاكِ

واكثروا من تشبيه الحبيب بانواع الرياحين لكثرة الرياض والبساتين عندهم، ثم لشغفهم بالطبيعة الناضرة الناعمة. وربما امعنوا في ذلك حتى يجردوا من محبوبهم روضة مختلفة الازهار والالوان. ومن ذلك قول ابن خَفَاجة[3] في طيف الحبيب:

تَنْدَى بِفِيهِ أُقْحُوَانَةُ أَجْرَعٍ، ... قَدْ غَازَلَتْهَا ٱلشَّمْسُ غِبَّ سَمَاءِ[4]
وَتَبِيسُ فِي أَثْوَابِهِ رَيْحَانَةٌ، ... كَرَعَتْ عَلَى ظَمَإٍ بِجَدْوَلِ مَاءِ[5]

---

(١) الذاكي: المتقد. (٢) قليت: ابغضت وهجرت. (٣) هو ابو اسحق ابراهيم ابن عبدالله بن خفاجة. كان مقيماً بشرق الاندلس، ولم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفها مع رغبتهم في تقريب اهل الادب، وله ديوان شعر احسن فيه كل الاحسان، ولاسيما وصف الطبيعة. ولد بجزيرة شُقْر من اعمال بلنسية في سنة ٤٥٠ هـ. (١٠٥٨ م) وتوفي بها سنة ٥٣٣ هـ. (١١٣٨ م). (٤) تندى: تبتل. الاقحوانة: زهرة صفراء في وسطها وحواليها ورق ابيض؛ تشبه بها الاسنان. الاجرع: الرمل الطيب النبت. غب: بعد. سماء: مطر، يريد ان اسنانه كاقحوانة ضاحكتها الشمس بعد ان سقاها المطر. (٥) ريحانة: المراد قامته. بجدول: الباء بمعنى من. والمراد قامة رياً بماء الشباب.

نَفَّاحَـةُ ٱلْأَنفَاسِ إِلَّا أَنَّهَا حَذَرَ ٱلنَّوَى خَفَّاقَـةُ ٱلْأَفْيَاءِ[1]

وهذه التشابيه على ابتذالها، توهم اجدة ما فيها من التلطف في اخراج صورها البيانية، ومثلها قول بعض الاندلسيين :

غَصَبُوا ٱلصَّبَاحَ فَقَسَّمُوهُ خُدُودَا، وَٱسْتَوْعَبُوا قُضُبَ ٱلْأَرَاكِ قُدُودَا[2]
وَرَأَوْا حَصَى ٱلْيَاقُوتِ دُونَ نُحُورِهِمْ، فَتَقَلَّـدُوا شُهُبَ ٱلنُّجُومِ عُقُودَا
لَمْ يَكْفِهِمْ حَدُّ ٱلْأَسِنَّةِ وَٱلظُّبَى، حَتَّى ٱسْتَعَـارُوا أَعْيُنًا وَخُدُودَا

ومن قصائد الغزل الشهيرة قصيدة ابن زيدون في صاحبته ولّادة بنت المستكفي، فقد تناقلتها كتب الادب، ورواها الخاصة وتغنى بها العامة لا لدقة معانيها وجدتها، وانما لسهولتها وانسجامها، ورقتها ووقع انغامها. وهي طويلة نجتزئ بشيء منها قال:

أَضْحَى ٱلتَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا، وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا
بِنْتُمْ وَبِنَّا، فَمَا ٱبْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ، وَلَا جَفَّتْ مَآقِينَا[3]
يَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا، يَقْضِي عَلَيْنَا ٱلْأَسَى لَوْلَا تَأَسِّينَا
حَالَتْ لِبُعْدِكُمُ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ سُودًا، وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا
إِذْ جَانِبُ ٱلْعَيْشِ طَلْقٌ مِنْ تَآلُفِنَا، وَمَوْرِدُ ٱللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
وَإِذْ هَصَرْنَا غُصُونَ ٱلْأُنْسِ دَانِيَةً قُطُوفُهَا، فَجَنَيْنَا مِنْـهُ مَا شِئْنَا[4]
لِيُسْقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ ٱلسُّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَـا إِلَّا رَيَاحِينَا
مَنْ مُبْلِغُ ٱلْمُلْبِسِينَا بِٱنْتِزَاحِهِمُ، حُزْنًا مَعَ ٱلدَّهْرِ لَا يَبْلَى، وَيُبْلِينَا:
أَنَّ ٱلزَّمَانَ ٱلَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا أُنْسًا بِقُرْبِكُمُ قَـدْ عَادَ يُبْكِينَا
مَا حَقُّنَا أَنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ بِنَا، وَلَا أَنْ تَسُرُّوا كَاشِحًا فِينَا[5]

---

(١) الافياء : جمع فيء وهو ما ينسخ الشمس ويكون من الزوال الى الغروب . كما ان الظل ما نسخته الشمس وهو من الطلوع الى الزوال . والمراد ان قامته ترتعش حذر النوى إرتعاش افياء الريحانة . (٢) استوعبوا : اخذوا الشيء باجمعه . (٣) جوانحنا : الضلوع تحت الترائب مما يلي الصدر . وقوله : ما ابتلت جوانحنا، يريد ما يجده العاشق من حرارة الشوق في قلبه . (٤) هصر الغصن : اماله وكسره . قُطُوفها : جمع قِطف، اسم لما يُقطف من الثمار . شئنا : سهل شئنا . (٥) كاشحًا : مبغضًا معاديًا .

غيضَ ٱلعِدَى مِن تَسَاقِينَا ٱلهَوَى فَدَعَوْا ... بِأَنْ نَغَصَّ، فَقَالَ ٱلدَّهْرُ : آمِينَا

فَٱنْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا، ... وَٱنْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا[1]

بِٱلْأَمْسِ كُنَّا وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا، ... وَٱلْيَوْمَ نَحْنُ، وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا

لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا ٱلْوَفَاءَ لَكُمْ ... رَأْيًا، وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا

لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا ... أَنْ طَالَمَا غَيَّرَ ٱلنَّأْيُ ٱلْمُحِبِّينَا

وَٱللهِ مَا طَلَبَتْ أَهْوَاؤُنَا بَدَلًا ... مِنْكُمْ، وَلَا ٱنْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

وَلَا ٱسْتَفَدْنَا خَلِيلًا عَنْكَ يَشْغَلُنَا، ... وَلَا ٱتَّخَذْنَا بَدِيلًا مِنْكَ يُسْلِينَا

يَا سَارِيَ ٱلْبَرْقِ، غَادِ ٱلْقَصْرَ فَٱسْقِ بِهِ ... مَنْ كَانَ صِرْفَ ٱلْهَوَى وَٱلْوُدَّ يَسْقِينَا[2]

وَيَا نَسِيمَ ٱلصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا ... مَنْ لَوْ عَلَى ٱلْبُعْدِ حَيًّا، كَانَ يُحْيِينَا

---

(١) انبت : انقطع . (٢) غادِ : باكرْ .

الخمريات

اللهو . مجالس الطرب . حب الخمر . الفحش والمجون . الاستخفاف بالدين . شعراء الخمر .

عني الاندلسيون بوصف الخمر لشغفهم بها ، واقبالهم على شربها . لان طبيعة بلادهم ، وما فيها من مناظر ورياض وانهار يحمل النفس على طلب اللهو والشراب . فاجادوا نعتها ، ووصفوا معها آنيتها والساقي والنديم ، ومجالسهم وما يجري فيها من غناء وعبث . وكانوا يتوكؤون في كثير من معانيهم على ابي نواس ، واولعوا بقوله :

تَسْقِيكَ مِنْ طَرْفِهَا خَمْرًا ، وَمِنْ يَدِهَا خَمْرًا ، فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدّ

فتناوله جملة من شعرائهم ، وتفننوا في الانسحاب عليه . واحسن ابن عبد ربه اذ يقول :

بِأَبِي مَنْ زَهَا عَلَيَّ بِوَجْهٍ ، كَادَ يَدْمَى لَمَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ[1]
نَاوَلَ الْكَأْسَ وَاسْتَمَالَ بِلَحْظٍ ، فَسَقَتْنِي عَيْنَاهُ قَبْلَ يَدَيْهِ[2]

وهم كالمشارقة يشوبون خمرياتهم بالفحش والمجون والاستخفاف بالدين . والطفها ما جاء ممتزجاً بالفاظ الطبيعة الناضرة ، فان فيه من العذوبة والخيال الشعري شيئاً غير يسير قال ابن خفاجة :

وَأَغْيَدَ فِي صَدْرِ الْكَلَامِ لِحُسْنِهِ حُلِيٌّ ، وَفِي صَدْرِ الْقَصِيدِ نَسِيبُ[3]
يَوِفُ بِرَوْضِ الْحُسْنِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ ، وَقَامَتِهِ ، نُوَّارَةٌ ، وَقَضِيبُ[4]

---

(١) زها : اشرق . (٢) استمال : مال . (٣) الاغيد : اللين الاعطاف المائل العنق . الحُليّ : ما يتخذ من الحجارة الكريمة للزينة . النسيب : وصف المحاسن ، والتعريض بذكر المحبوب . يقول : هذا الاغيد له في صدر الكلام المنثور نعوت كالحلي تزين حسنه ، وله في صدر المنظوم وصف وتعريض بهواه . والمراد ان ذكره يتردد في بدء كل منثور ومنظوم .
(٤) النوارة : زهرة الشجر .

جَلَاهَا ، وَقَدْ غَنَّى ٱلْحَمَامُ عَشِيَّةً ، عَجُوزًا ، عَلَيْهَا لِلْحَبَابِ مَشِيبُ (١)
وَجَاءَ بِهَا حَمْرَاءَ أَمَّا زُجَاجُهَا فَنُورٌ ، وَأَمَّا مَوْجُهَا فَكَثِيبُ (٢)
وَغَازَلَنَا جَفْنٌ هُنَاكَ كَنَرْجِسٍ ، وَمُبْتَسِمٌ كَٱلْأُقْحُوَانِ شَنِيبُ (٣)
فَلِلَّهِ ذَيْلٌ لِلتَّصَابِي سَحَبْتُهُ ، وَعَيْشٌ بِأَطْرَافِ ٱلشَّبَابِ رَطِيبُ (٤)

ومن تفنن ابن خفاجة في خمرياته قوله يصف ساقياً احدب اسود :

رُبَّ ٱبْنِ لَيْلٍ سَقَانَا ، وَٱلشَّمْسُ تُطْلِعُ غُرَّهْ (٥)
فَظَلَّ يَسْوَدُّ لَوْنًا ، وَٱلْكَأْسُ تَسْطَعُ حُمْرَهْ
كَأَنَّهُ كِيسُ فَحْمٍ ، قَدْ أُوقِدَتْ فِيهِ جَمْرَهْ

---

(١) جلاها : عرضها كما تعرض العروس . ومن معاني الخمر عند العرب ان يخطبوا الخمرة ويتزوجوها، ويدفعوا مهرها . عجوزًا : خمرة معتقة . الحَباب ما يعلو الخمرة من الفقاقيع .
(٢) اراد بموجها ما يطفو على وجهها من الحبب، شبهه بالكثيب . (٣) مُبتسم : اي ثغر مُبتسم ، او هو مُبتَسَمٌ اسم لمكان الابتسام . شنيب : صافي الاسنان . (٤) التصابي : الميل الى جهلة الفتوة، وحب الصَبْوَة . (٥) الغُرّة : كل ما بدا من ضوء او صبح .

الصيد

قصائد واراجيز . طريقة الجاهليين . طريقة المولدين . شعراء الصيد .

(وكان الصيد من ملاهيهم، وملاهي ملوكهم . فوصفه الشعراء في قصائدهم واراجيزهم، وخلطوا فيه طريقة الجهليين بطريقة المولدين . فكانوا يصفون جيادهم، وانطلاقهم بها في اثر الطرائد، وكلابهم وشدتها فعل الشاعر الجاهلي) ثم يمعنون في وصف الجوارح، وادوات الصيد، وما يصاد من الوحوش والطيور فعل الشاعر المولد . وربما مدحوا الامير بذكر صيده، كما قال ابن زَمرك في مدح سلطانه ابن الاحمر :

وَلُرُبَّ مُمْتَدِ ٱلْأَبَاطِحِ مُوحِشٍ، عَالِي ٱلرُّبَى مُتَبَاعِدِ ٱلْأَقْطَارِ (١)
هَمَلِ ٱلْمَسَارِحِ لَا يُرَاعُ قَنِيصُهُ، إِلَّا لِنَبْأَةِ فَارِسٍ مِغْوَارِ (٢)
عَرَضَتْ بِهِ ٱلْمُسْتَنْفَرَاتُ كَأَنَّهَا خَيْلٌ عِرَابٌ جُلْنَ فِي ٱلْمِضْمَارِ (٣)
أَتْبَعْتَهَا غُرَرَ ٱلْجِيَادِ كَوَاكِبًا، تَنْقَضُّ رُجْمًا فِي سَمَاءِ غُبَارِ (٤)
وَٱلْهَادِيَاتُ يَؤُمُّهَا عَبْلُ ٱلشَّوَى، مُتَدَفِّقٌ كَتَدَفُّقِ ٱلتَّيَّارِ (٥)
أَزْجَيْتَهَا شَقْرَاءَ، رَائِقَةَ ٱلْحِلَى، فَرَمَيْتَهُ مِنْهَا بِشُعْلَةِ نَارِ (٦)

---

(١) الاباطح ، جمع ابطح : مسيل متسع عريض فيه دقاق الحصى . (٢) الهَمَل : المتروك سدى . المسارح : المراعي . القنيص : الصيد المقنوص . النبأة : الصوت . يقول : هذا المكان تخوف منه الصيادون لتوحشه، فتركوا مراعيه سدى، واصبح لا يهبطه الا كل فارس مغوار . (٣) عرضت : مرت في عدوها عارضة على جنب واحد . المستنفرات : الطرائد التي نُفّرت فنفرت . عراب : عربية خالصة . (٤) الرُجُم : ما يظهر في السماء كانه نجوم تتساقط ، وسكنت الجيم هنا لضرورة الشعر، مفردها رَجَم . (٥) الهاديات : اوائل الطرائد النافرة . يؤمها : يتقدمها . عبل : ضخم . الشَوى : الاطراف والقوائم ، والمراد طريد ضخم القوائم قوي . (٦) ازجيتها : سقتها . شقراء : صفة للمهرة . الحلى : زينتها من المصوغات .

أَثَّرْتَ فِيهِ ٱلرُّمْحَ ثُمَّ تَرَكْتَهُ ... خُضِبَ ٱلْجَوَانِحُ بِٱلدَّمِ ٱلْمَوَّارِ (١)

حَامَتْ عَلَيْهِ ٱلذَّابِلَاتُ كَأَنَّهَا ... طَيْرٌ أَوَتْ مِنْهُ إِلَى أَوْكَارِ (٢)

ومنها في وصف الطرائد :

وَأَرَيْتَنَا ٱلْكَسْبَ ٱلَّذِي أَعْدَادُهُ، ... مَلَأَتْ جَمَالًا أَعْيُنَ ٱلنُّظَّارِ

بِيضٌ وَصُفْرٌ خِلْتَ مَطْرَحَ سَرْحِهَا ... رَوْضًا تَفَتَّحَ عَنْ شَقِيقٍ بَهَارِ (٣)

مِنْ كُلِّ مَوْشِيِّ ٱلْأَدِيمِ مُفَوَّفٍ، ... رَقَمَتْ بَدَائِعَهُ يَدُ ٱلْأَقْدَارِ (٤)

خُلِطَ ٱلْبَيَاضُ بِصُفْرَةٍ فِي لَوْنِهِ، ... فَتَرَى ٱللُّجَيْنَ يَشُوبُ ذَوْبَ نُضَارِ

---

(١) الجوانح : ما يلي الصدر من الاضلاع . الموّار : الجاري . (٢) الذابلات : الرماح . (٣) سرحها : رعيها . الشقيق : ما انشق نصفين من نبت وغيره . البَهار : نبت طيب الرائحة ربيعي، اصفر الورق، احمر الوسط . (٤) موشي : منقّش . الاديم : الجلد . مفوّف : فيه خطوط بيض على الطول .

الطبيعة والعمران

جمال التصوير . دقة الوصف . خصب الخيال . الابداع . الطبيعة الناعمة . السماء والارض . حب الاندلسي للطبيعة . حبه لوطنه . تعصبه له . جمال الاندلس . الطبيعة في الاشياء المعنوية . في الاشياء المادية . في المدح والتخلص اليه . في الغزل . تشخيص الطبيعة . احساسهم نحوها . درس نفسيتها . رقتهم . جمال تشابيههم .

اذا شئت ان تلتمس ابداع شعراء الاندلس وافتنانهم ، ودقة وصفهم، وجمال تصويرهم ، وحلاوة معانيهم ، وخصب خيالهم ؛ فاسمعهم يذكرون الطبيعة الناعمة الناضرة، وينعتون زينتها وحلاها، واصباغها والوانها، ويصورون حضارتها وعمرانها . فترى شعرهم حافلاً بذكر الرياض والازهار ، والطيور والاشجار ، والجداول والانهار، والنجوم والاقمار، والغيوم والامطار، والقصور وحدائقها، والبرك ودوافقها، والصور والتماثيل، والنقوش والتهاويل، وما الى ذلك من مفاتن في الطبيعة والعمران . والاندلسي اشغف الناس بالطبيعة، وألصقه بها، لا يفتأ يتغنى بمحاسنها سواء كان جاداً او لاهياً، ضاحكاً او باكياً .

واذا شئت ان تلتمس حب الوطن في الشعر العربي، فاطلبه عند شعراء الاندلس، فانه ممتزج بكل علقة من دمائهم، مصور في كل جارحة من جوارحهم . والاندلس قبلة شاعرها كيف اتجه، وانى اغترب ، لا ينقطع عن ذكرها ، ولا يرى بلداً في الدنيا يضاهيها . فجمالها فوق كل جمال، وعمرانها دونه كل عمران، وهي جنة الخلد بحورها وولدانها ، ورحيقها وكوثرها .

وليس بينه وبين الشاعر العباسي شبه من هذه الناحية؛ لان العاطفة الوطنية ضعيفة في شعر المشارقة، لا تكاد تلمح لها خيالاً الا في الندرى . والظاهر ان وجود المسلمين في بقعة تحيط بها دول نصرانية، لا تألو تجاهدهم لتخرجهم منها ذوداً عن الدين

والوطن ، مكّن هذه العاطفة فيهم وجعلهم يقابلون اعداءهم بمثل حتى اصبح حب الوطن مالكاً على نفوسهم .

وحق لاهل الاندلس ان يتعبدوا لوطنهم ، فان هذا الصقع الجميل المُخصاب جدير بان يمتلك القلوب ويستهويها ، ولاسيما قلوب الشعراء ، فانها اسرع من غيرها الى تعشق الجمال والخضوع لسلطانه ، واستشفاف سحره ، والفناء في مادته وروحانيته . وقد استحثت الاندلس قرائح الشعراء بوحي طبيعتها وغذّتها افضل غذاء ، وحبتها بخيال جميل لم يظفر بمثله من شعراء الشرق الا الاقلون . فان قرطبة واشبيلية وغرناطة كانت ابلغ اثرًا في مخيلات الشعراء من الشام والعراق ومصر . فاذا هم والطبيعة إلفان لا يفترقان ، وروحان متصلان . واذا الطبيعة لديهم نفس هيولانية تقبل جميع الصور وتتقمص جميع الاجسام ، لا يخلو عنها غرض من اغراضهم ، ولا يتخلى منها خاطر من خواطرهم . فان مدحوا خصوها بنصيب من مدحتهم ، فجعلوا صورها بالاشياء المعنوية :

هَصَرَتْ يَدِي غُصْنَ النَّدَى مِنْ كَفِّهِ ، وَجَنَتْ بِهِ رَوْضَ السُّرُورِ مُنَوَّرَا

او بالاشياء المادية :

أَثْمَرْتَ رُمْحَكَ مِنْ رُؤُوسِ كُمَاتِهِمْ ، لَمَّا رَأَيْتَ الْغُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمِرَا

ويهدي شاعرهم قصيدته الى ممدوحه فما يرى غير الروض شبيهاً لها :

وَإِلَيْكَهَا كَالرَّوْضِ زَارَتْهُ الصَّبَا ، وَحَنَا عَلَيْهِ الطَّلُّ حَتَّى نَوَّرَا

وربما اراد التخلص الى المدح فيستخدم الطبيعة سبيلاً الى ممدوحه كما فعل ابو عامر ابن شُهيد في مدح المؤتمن بن عامر فانه استهل مدحته بذكر الخمر والساقي ، وانتهى الى وصف سحاب ماطر :

وَغَمَامٍ بَاكَرْتُنَا غَيْمُهُ ، تُتْرِعُ الْأُفْقَ بِدَمْعٍ صَيِّبِ
مِثْلَ بَحْرٍ جَاءَنَا مِنْ فَوْقِنَا ، جِرْمُهُ مِنْ أُولُؤٍ لَمْ يُثْقَبِ (١)

---

(١) جرمه : جسمه . من لؤلؤ لم يثقب : اراد به البَرَد .

ثم شرع يتحدث الى المزن كمن يتحدث الى انسان عاقل حتى اعد سبب الانتقال الى المدح :

فَسَأَلْنَاهُ ، وَقَدْ أَعْجَبَنَا ... حَشْوُهُ ٱلْعَيْنَ بِمَرْأًى مُعْجِبِ :(١)

«أَنْتَ مَاذَا؟» قَالَ : «مُزْنٌ عَلَّمَتْ ... كَفَّهُ ٱلنَّفْحَةَ كَفَّا دَرِبِ»(٢)

«رَامَنِي بِٱلشَّرْقِ أَنْ أَسْقِيَكُمْ ، ... رَحْمَةً مِنْهُ ، بِأَقْصَى ٱلْمَغْرِبِ»(٣)

فَسَأَلْنَاهُ : «أَبِنْ ذَاكَ لَنَا ، » ... قَالَ : «هَلْ يَخْفَى ضِيَاءُ ٱلْكَوْكَبِ؟»

«مَلِكٌ نَاصَبَ مَنْ خَالَفَكُمْ ، ... عَادِيُّ ٱلْمُنْتَمَى وَٱلْمَنْصِبِ»(٤)

وان تغزلوا متشوقين الى احبتهم عنت لهم ايام اللقاء بالاندلس، فينقطعون عن الغزل منصرفين الى وصف موضع اللقاء كأن لذة الاتصال بالطبيعة كافية ان تؤدي شرح احوالهم الى احبائهم الهاجرين . قال ابن زيدون يذكر ولّادة وهو بالزهراء، وهي في قرطبة :

إِنِّي ذَكَرْتُكِ بِٱلزَّهْرَاءِ مُشْتَاقَا ، ... وَٱلْأُفْقُ طَلْقٌ ، وَوَجْهُ ٱلْأَرْضِ قَدْ رَاقَا

وَلِلنَّسِيمِ ٱعْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ ، ... كَأَنَّمَا رَقَّ لِي ، فَٱعْتَلَّ إِشْفَاقَا

وَٱلرَّوْضُ عَنْ مَائِهِ ٱلْفِضِّيِّ مُبْتَسِمٌ ، ... كَمَا حَلَلْتَ عَنِ ٱللَّبَّاتِ أَطْوَاقَا(٥)

يَوْمٌ كَأَيَّامِ لَذَّاتٍ لَنَا ٱنْصَرَمَتْ ، ... بِتْنَا لَهَا ، حِينَ نَامَ ٱلدَّهْرُ ، سُرَّاقَا

نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ ٱلْعَيْنَ مِنْ زَهَرٍ ، ... جَالَ ٱلنَّدَى فِيهِ ، حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا(٦)

كَأَنَّ أَعْيُنَهُ ، إِذْ عَايَنَتْ أَرَقِي ، ... بَكَتْ لِمَا بِي ، فَجَالَ ٱلدَّمْعُ رَقْرَاقَا(٧)

وَرْدٌ تَأَلَّقَ فِي ضَاحِي مَنَابِتِهِ ، ... فَٱزْدَادَ مِنْهُ ٱلضُّحَى فِي ٱلْعَيْنِ إِشْرَاقَا(٨)

---

(١) حشوه : فاعل اعجبنا . (٢) مزن : سحاب فيه مطر . النفحة : العطية . درب : متمرن معتاد . والمراد كفّا الممدوح . (٣) المراد ان الممدوح جاء به من الشرق ليسقيهم في الغرب . (٤) ناصب : عادى وحارب . المنصب : الحسب والاصل . (٥) اللبات ، جمع لَبَّة : موضع القلادة من الصدر . والمراد يتألق الماء الفضي في الروض تألق نحر الحسناء اذا كشفت عنه الاطواق . (٦) اعناقا : تمييز؛ والمراد مالت اعناقه . (٧) جعل الزهر بشعر بأرقه فيبكي اشفاقاً عليه، وجعل الندى في اوراق الزهر دمعاً يترقرق . (٨) الضاحي : الظاهر، والبارز للشمس .

سَرَى يُنَافِحُهُ نِيلُوفَرٌ عَبِقٌ ، وَسْنَانُ نَبَّهَ مِنْهُ الصُّبْحُ أَحْدَاقَا[1]
كُلٌّ يَهِيجُ لَنَا ذِكْرَى تَشَوُّقِنَا ، إِلَيْكِ لَمْ يَعْدُ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا[2]

ويصف عاشقهم حبيبه فيجعله جنة مختلفة الازهار ؛ وقد اوردنا في باب الغزل شواهد على ذلك . وربما تعفف فما يرى غير الطبيعة صورة لعفته كقول ابي عمر بن فرج :

وَطَائِعَةِ الْوِصَالِ عَفَفْتُ عَنْهَا ، وَمَا الشَّيْطَانُ فِيهَا بِالْمُطَاعِ
وَمَا مِنْ لَحْظَةٍ إِلَّا وَفِيهَا ، إِلَى فَتْنِ الْقُلُوبِ بِهَا ، دَوَاعِ
كَذَاكَ الرَّوْضُ مَا فِيهِ لِمِثْلِي ، سِوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَتَاعِ
وَلَسْتُ مِنَ السَّوَائِمِ مُهْمَلَاتٍ ، فَأَتَّخِذَ الرِّيَاضَ مِنَ الْمَرَاعِي[3]

ويطول بنا الامر ان تتبعنا صور الطبيعة في مختلف انواع الشعر الاندلسي ، فحسبنا القول انها حديثهم في جميع اغراضهم . والرجوع الى اشعارهم يؤيد صحة ما نقول .

وكان من امعانهم في ابراز صور الطبيعة وتشخيصها ان شغلوا عن وصف احساسهم بجمالها ، وتذوقهم اسرارها ، والتذاذهم الاتحاد بها ؛ فخلا شعرهم او كاد يخلو من تصوير اختلاجات نفوسهم نحوها ، وانجذاب عواطفهم اليها . مثال ذلك قول ابن خفاجة وهو اشعر من وصف الطبيعة عندهم ، وشغف بمحاسنها ، واتصل بها . قال يصف نهرًا :

مُتَعَطِّفٌ مِثْلُ السِّوَارِ كَأَنَّهُ ، وَالزَّهْرُ يَكْنِفُهُ ، مَجَرُّ سَمَاءِ[4]
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظُنَّ قُرْصاً مُفْرَغاً مِنْ فِضَّةٍ ، فِي بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ[5]

---

(١) ينافحه : يدافعه . النيلوفر : ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة ، له اصل كالجزر ، وساق املس ، يطول بحسب عمق الماء فاذا ساوى سطحه اورق وازهر ، واذا بلغ يسقط عن رأسه ثمر داخله بزر اسود . الوسنان : من غلب عليه النعاس . (٢) لم يعد : لم يلبث . (٣) السوائم : الماشية ترعى حيث تشاء ؛ مفردها سائمة . مهملات : متروكات ترعى بدون راع . (٤) يكنفه : يحوطه . المجر : المجرّة ، ودرب التبان عند العامة . يقول : ان هذا النهر متعطف مثل السوار وكأنه وازهر يحوطه ، المجرة يحوطها النجوم . (٥) شبه النهر المتعطف كالسوار بقرص من فضة ، وشبه ما يحيط به من النبات بالبردة الخضراء .

وَغَدَتْ تَخُفُّ بِهِ الْغُصُونُ كَأَنَّهَا هُدْبٌ يَخُفُّ بِمُقْلَةٍ زَرْقَاءِ[1]
وَالْمَاءُ أَسْرَعَ جَرْيَهُ مُتَحَدِّرًا مُتَلَوِّيًا كَالْحَيَّةِ الرَّقْطَاءِ[2]
وَالرِّيحُ تَعْبَثُ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ الْمَاءِ[3]

ولكنهم ابدعوا في بث الحياة بها، ودرس نفسانيتها على ما يوحي اليهم خيالهم الخصب، فعل ابن زيدون في قافيته التي ارسلها الى ولادة، وفعل ابن شهيد في وصف السحاب الماطر. وكثير من معاني الاندلسيين في الطبيعة مطروق، سبقهم اليه المشارقة؛ ولكنهم تلطفوا في اخراجه، وتفننوا في تصويره فظهرت عليه الجدة والطرافة كقول ابن الزقاق:

وَرِيَاضٍ مِنَ الشَّقَائِقِ أَضْحَتْ يَتَهَادَى بِهَا نَسِيمُ الرِّيَاحِ
زُرْتُهَا، وَالْغَمَامُ يَجْلِدُ مِنْهَا زَهَرَاتٍ تَفُوقُ لَوْنَ الرَّاحِ
قُلْتُ: «مَا ذَنْبُهَا؟» فَقَالَ مُجِيبًا: «سَرَقَتْ حُمْرَةَ الْخُدُودِ الْمِلَاحِ»

وشغف الاندلسيين بالطبيعة، منحهم خيالاً جميلاً، وتشابيه حلوة، فكانت الرقة والنعومة ميزة اشعارهم، والفضل في ذلك للاندلس وما لربوعها من تأثير في نفوسهم، حتى كان حبهم لها عبادة. قال ابن خفاجة:

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ لِلَّهِ دَرُّكُمُ، مَاءٌ، وَظِلٌّ، وَأَشْجَارٌ، وَأَنْهَارُ!
مَا جَنَّةُ الْخُلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمُ، وَلَوْ تَخَيَّرْتُ، هَذَا كُنْتُ أَخْتَارُ[4]

وكان للاندلس وطبيعتها القسط الاوفر في موشحاتهم الشهيرة.

---

(١) الهُدْب: شعر اشفار العيون؛ شبه العصون في تهدلها على النهر باشفار العين، وشبه النهر المستدير بالعين الزرقاء. (٢) الرقطاء: ما شاب بياضها سواد او عكس ذلك. شبه الماء واختلاف لونه في الظلال حين تلويه، بالحية الرقطاء. (٣) الاصيل: بعد العصر الى الغروب. اللُجَين: الفضة. (٤) هذا: اي هذا المكان، يفضل الاندلس على جنة الخلد.